

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التاسع والتسعين

٧ رجب سنة ١٣٦٠

١ أغسطس سنة ١٩٤١



من الأقوال السائدة في الحرب المرض المسلّم بصحتها قول قديم مؤداه أن المرض في الحرب أفتك بالجند والناس من الأسلحة . وقد أشار المؤرخون إلى ما يؤيد هذا القول في حملة ذركيس الفارسي على اليونان ، وفي الحروب الصليبية ثم في حرب الثلاثين سنة وغيرها من الحروب التي تلت الثورة الفرنسية ولاسيما حروب نابليون في عهده الأخير عند ما خاق الخناق عليه وعلى قارة أوروبا . أما الحروب القارية منها حرب التريم وقد نشأت في أثنائها حمى التيفوس والهواء الأصفر والدبستاريا وغيرها في صفوف الجيوش الروسية والبريطانية والفرنسية فتسببت بها فتكاً ذريعاً وحصدت من النفوس أضاف ما حصده القتال . وفي الحرب الأميركية المكسيكية (١٨٤٦ — ١٨٤٩) بلغت الإصابات الناشئة عن المرض في الجيش الأميركي سبعة أضعاف الإصابات الناشئة عن القتال . وفي الحرب الأهلية الأميركية قتل المرض ١٨٦ ألفاً من الجند ولم يُقتل في المارك إلا نصف ذلك

وكانت العناية بصحة الجيوش والسيطرة على شتى الأمراض المعدية قد تقدمت تقدماً عظيماً عند ما خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٧ فتوازت خسارتها من إبنائها بالقتال وبالمرض . أما في بلدان أوروبا نفسها فقد زاد معدل الوفيات في شتى الشعوب الأوروبية في أثناء الحرب العالمية الأولى زيادة بالغة حتى قاتل المعدل السوي أضعاف أضعاف . وقد أثبت العالم ليس مرش الإحصائي المدقق بجامعة جنيف أن خسارة أوروبا من

الأهلين بسبب الحرب العالمية الأولى بلغ اثني عشر مليوناً أو زاد عليها قليلاً . وهو رقم قريب من خسارة أوروبا في الخسائر الذين قتلوا في المعارك أو توفوا متأثرين بجراحهم أو بأحد الأمراض

ان مشكلات الطب والصحة العامة في أثناء الحرب لا تختلف في أصولها عما يقابلها في أثناء السلام . ووجه الاختلاف في الكثرة واتساع النطاق وتمدد الطريق لاستنحاح العدوى وانتشار الأمراض بسبب نقص الغذاء الذي تفرضه أحوال الحرب على الأهلين وكذلك التعرض لثلاث العوامل ومنها تقلب الحالة النفسية بين الحفوف والطائفة والبأس والأمل والواقع ان تحول الحرب الحديثة الى حرب كلية عما الفوارق القديمة بين القوات المسلحة والسلب . فخط القتال انتقل الى شارع المدينة وساحة القرية وحمل البيت والدكان والمصنع والمدرسة والمسد جيماً أهدافاً للهجوم . فطب الجيوش غداً لا يهرق في شيء ما تقريباً عن الطب الأهلي والصحة العامة في أثناء السلام

وليس ثمة ريب في ان الصحة العامة تتأثر بكل ما يؤثر في صحة الفرد وهو مجموعة من العوامل المتفرقة منها ما يستند الى الوراثة ومنها ما يبرز الى الية ومنها ما يرجع الى تفاعل الوراثة والية في جسم الانسان وما يتصل بهذا التفاعل من حالة توازن على تسيها أو وصفها بالحالة النفسية أو العصبية . ومن أغرب ما يروى في هذا الصدد زيادة الامساك ببعض الحالات الناشئة عن اضطراب الضدد ولا سيما الغدة الدرقية في أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية وكذلك في السنة الثانية من الحرب الحالية في نيويورك وهي السنة التي تفاقمت فيها الحرب في أوروبا وبدأت أميركا تأهب لمساعدة بريطانيا وتعدّ عدتها للدفاع عن نفسها . وتدل البحوث الاحصائية الطبية الأميركية ان حالتى الترف الخفي والتهاب الكلى يتأثران أعلى معدلها في السنة الأولى من بدء حوض الولايات المتحدة مشترك الحرب العالمية الأولى . ثم في السنة الثانية عاد المعدل الى نسواه المعهود من قبل . والحالتان متصلتان بارتفاع ضغط الدم ، وضغط الدم متصل بالحالة النفسية والعصبية ، فلا غرو ان يكون لشوب حرب او تفاقم أزمة وهما من أبث البواعث على اضطراب الخواطر سبباً في زيادة حالات مرضية متنوعة

فبحث موضوع « المرض والحرب » وما طرأ من جديد على الصحة يتفق رسائل مطولة أو كتباً ضخمة . ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ولذلك سنأخذ في ما يلي من الصفحات ناحيتين من هذا الموضوع ، لعلهما كانتا في الماضي أحفل النواحي بتأثير الحرب في صحة الجيوش والتمرب وهما الجوع والوباء^(١)

(١) الاعتماد في هذا المقال على فصل في مجلة هاربر الاميركية للكاتب العلمي جورج فريدي

٢ - الجوع والحرب

تم تكبد نصف سنة ١٩١٨ حتى كان الضام قد نُس في ألمانيا والنمسا وكثرت الأمراض الناشئة عن نقص الغذاء. ومنها أمراض ظُن أنها معدية كالبلجرا ، وهو مرض لم يلم الآن أن مَرْدُهُ إلى نفس خاص في بعض أصناف المواد الغذائية . وانتشرت في أوروبا ملايين من الاصابات بما وصف حينئذ بلفظي « الاستقاء البرقي » ، وهذا الوصف أطلق أولاً في الهند على مرض ظهر وتَشَّى في أثناء القحط العظيم (١٨٧٦ - ١٨٧٧) وظن كذلك أنه معدٍ . ولكن الحرب العالمية الأولى أثبتت أن مَرْدُهُ على وجه خاص إلى نقص البروتين في ذلك الحساء الألماني الذي تؤد الناس تناوله للء بطونهم . فنشأ عن هذا النقص انتفاخ البطن وتورم السيقان وعم الكساح كذلك ولاسيما في جامعات ميعة وبخاصة مدينة فُيسا

وكانت الجيوش تفصل على الأهالي في ما يصيبها من مواد الطعام ولكنها مع ذلك قامت كثيراً من هذا قبيل . فالجيش الإيطالي مثلاً يَتَفَضِّلُ ضيفاً ساخراً كما ذكرت معركة كابورتو إلى خذل فيها خذلاً شتاتاً في سنة ١٩١٧ ولكن مؤرخي « طب الحرب العالمية الأولى » يقولون إن تقرننا الإيطاليين يَتَفَضِّلُ متى علمنا أنه عندما انشبت المعركة كان قد مضى على الجيش الإيطالي نيجة أشهر وجرايته أقل كثيراً من الجراية العادية وشجع الطوع يصاحبه ليلة نهار كان علم الأطباء بأصول الغذاء يسيراً مشتتاً من خمس وعشرين سنة . ولكنه تقدم في خلال هذه السنين تقدماً عظيماً من شأنه أن توفى الجيوش والشعوب جانباً كبيراً من آثار الجوع . كان مقدار الحرارة الذي يولده طعام ما أساس « علم الغذاء » في عرف الطب قبل ربع قرن من الزمان . ووحدة الحرارة (الكالوري) كانت السمار والمقياس . نعم كان فريق من الباحثين قد كشف قبل سنوات عن عوامل غذائية إضافية لا يصلح طعام ولا يتم بدونها . وجرب بعضا تجريباً متعمداً . ولكن جل هذا البحث كان محصوراً في معامل البحث . حتى كلمة « فيتامين » - وهي اللفظ الذي عرفت به هذه العوامل الغذائية - لم يترف بها إلا في سنة ١٩٢٠ (استعملها أولاً الباحث فولك في سنة ١٩١١ وأطلقها على العامل الغذائي المقاوم للبريبي وهو العامل المستخرج من قشور الرز)

أما الآن فعدد التباينات المعروفة لا يقل عن ثمانية . والأطباء وعلماء التغذية على علم غير يسير بتركيبها وتأثيرها والأمراض التي تنشأ عن نقصها وكيف تصنع في معامل التركيب الكيميائي من مواد غير عضوية . وقد كشف الطب كذلك ما لبعض المعادن من تأثير عظيم في الغذاء ، ففادير يسيرة جداً من الكليوم والنصفور والحديد واليود وغيرها تقدم وتؤخر كثيراً في حالة المَرء الصحية . وهذه الماروف مهدت السبل لصنع مركبات مركزة تحتوي على هذه المواد

التغذية اللازمة للحياة تضاف الى الطعام العادي وتحتسب صاحبها بنواصر كانت شمة عليها إما لحبلة بها وإما لسر فورز. بالمواد الأساسية التي تحتويها كالليوم واللين والفاكهة والخضراوات وما أشبه. ومن هذه المركبات مركبان منها الدكتور هرس استاذ كيمياء التغذية في معهد ماستشوستس التكنولوجي أساس أحدهما مزيج من دقيق الحنطة وقول الصويا وأساس الآخر مزيج آخر من الحبوب. وقد أضيف الى كل من المزيجين الفيتامينات والأملاح الضرورية. ولم يضاف اليهما فيتامين C لأن الحصول عليه ميسور في عصر الطائمه الفضة. ويقول الدكتور هرس ان مقدار ثلثي الأوقية من أحد المزيجين يكفي حاجة رجل الى الفيتامين والبروتين والملح في اليوم. فإذا أضيف الى طعام ألبا كان تركيبة فاز جسم الرجل بما يقع غائلة الجوع الصحيح. ومنع استاذ في جامعة كاليفورنيا مزيجاً آخر من هذا القليل وأفرغته في قالب حبوب كحبوب الصناعات قلنا «الجوع الصحيح». والواقع ان الجوع في عرف العلم الحديث جوعان. أحدهما جوع البطن يكفيه مواد غذائية ولكنهما قد لا تحتوي على جميع العناصر اللازمة للحياة. والآخر جوع النسج النسيجية في الجسم وهو الجوع الذي لا يكفيه إلا حصول تلك النسج على ما يلزمها من الفيتامينات والأملاح وغيرها من العناصر الحيوية (١)

هذه الحقائق حلت الحكومة البريطانية على تعزيز الدقيق الذي يصنع منه الخبز في الخبز على اضافة فيتامين D (ب ١) اليه وكذلك عنصر الكليوم. وجارتها الحكومة الأميركية في ذلك (٢) وليس في وسع أحد ان يحكم الآن في هل تصاب أوروبا القارة بأحوال من قلة الغذاء مماثل ما أصيبت به الدول الأوروبية المتوسطة في الحرب العالمية الأولى. ولكن لا ريب في ان البلدان المحتلة بدأت تصاب بنقص الغذاء وإذا طال الصراع زاد نقص الغذاء. نعم ان المكتشفات الحديثة في علم الغذاء قد تمنع بعض عواقب القلة ولكن الفيتامينات لا تتركب والأملاح لا تستخرج إلا من المواد اللازمة لها والمحتوية عليها. وعلاوة على ذلك يجب ان يتوافر لها الهال المنقون ومثلا على النال من خيرة المتعلمين وربما تعذر الاستغناء عنهم في معامل الأسلحة لكي ينهضوا بتركيب الأغذية للجاهل

وسع لزوم الفيتامينات والأملاح للصحة التامة فالجسم لا يستطيع ان يستغني عن مواد الطعام الأخرى التي دعاها البطن. والمرجح ان نقص الطعام في قارة أوروبا أمر قد لا يفضي في هذه الحرب الى موت ملايين جوعاً كما ماتوا في اثناء النحط الروسي سنة ١٩٢٠ ولكنه قد يكفي لبث الوهن في قوام فيصبحون عرضة لتلك الأمراض اذ تبطل الميكروبات ما بدأه نقص الغذاء

(١) راجع مقال «البحث العلمي الحديث في الصحة والمرض والجوع» - مقطف مارس ١٩٤١ ص ٢١١

(٢) راجع مقال «دقيق مشبع بالفيتامين» - مقطف مايز ١٩٤١ ص ٤٦٦

٣ - الربار والحرب

يحدد الجوع الطريق لتفشي الأوبئة ، لأنه يضيف الأجسام فتعجز عن مقاومة الجراثيم . وأشهر الأمراض التي يخشى تفشيها في الحرب العالمية هي الاقلوزا وذات الرئة والحمى الخبيثة الشوكية والديسنتاريا وحمى التيفوس والبرداء (الملاريا) . فكل مرض من هذه الأمراض كان له نصيب في ماحصده المرض بوجه عام من القوس في الحرب العالمية الأولى . والدلائل تدل على وجود آثارها جسيماً في أوربا مع أن مرضاً منها لم ينشأ تفشيًا وبائيًا . ومن الجائز أن يتفنى أحدها أو مرض آخر قبل انتهاء هذا الصراع كما تفشت الاقلوزا (١) في الحرب العالمية الأولى وببديدها . ولكن للطب وسائل لكفاح هذه الأمراض لم تكن متاحة في أثناء الحرب العالمية الأولى .

نعم أن الملاريا لا تزال متجددة الاطباء فلم تغبر تماماً . وفي وسع طفليها أن يخفي في النسيج أحياناً فلا يتأثر بفعل الكينين . فيبدو وهو مخفي أنه قهر ، ثم يعود الى الظهور فيصاب صاحبه بالفسفرة والحشى . ومن نحو عشر سنوات صنع في ألمانيا عقار بالتركيب الكيميائي يدعى اتبرين Atebrin يفوق الكينين في علاج الملاريا من وجود مرضي . ولكنه غال واستعماله محدود بموامل أخرى . ورأي الأطباء أنه لا بد من عقار آخر لقمح الملاريا قهرًا تمامًا . وقد اهتمت حكومة الولايات المتحدة الأميركية بالموضوع ، من وجهة الدفاع القومي فبنت مصلحة الصحة العامة فريقاً من أربع باحثين للاهتمام بتركيب عقار من هذا القبيل . والغالب أن هؤلاء الباحثين يستمدون أملاً كبيراً في احتمال النجاح مما رأوه من نجاح السلفانيلايد ومشتقاته في علاج امراض كثيرة علاجاً ناجحاً ومن الأمراض الفتاكة التي عولجت علاجاً ناجحاً بأحد مشتقات السلفانيلايد مرض

الحمى الخبيثة الشوكية . فقد كانت هذه الحمى في الحرب العالمية الأولى مصيبة الخنادق اذ تفشت فيها وباءً حاصداً وكان الاسرى يرفونها باسم «حمى المسكرات» او «حمى المعتقلات» . وكانت تنشر حيث يجتمع اللاجئون او حيث يزدحم الناس في احوال من الميعة لا تقبح لم أسباب النظافة والغذاء الوافي . وكان معدل الوفيات بها ثمانين في المائة من الاصابات

وقد ظهرت اصابات هذه الحمى في مستهل هذه الحرب . ومن عهد قريب وضع أحد الأطباء المكربين تقريراً ثانياً وانبأ عن ١٢٤ إصابة في أحد المستشفيات الخاصة بعزل المعالين بها حدثت في شتاء ١٩٣٩ و ربيع ١٩٤٠ ومما جاء في هذا التقرير ان استعمال عقار مشتق من السلفانيلايد يدعى صولوسبتسين Soluseptasine في علاج هذه الحمى أفضى الى خفض معدل الوفيات الى ٣ في المائة (كان في الحرب العالمية الأولى ٨٠ في المائة) . وكان بعض هذه الاصابات شديداً

(١) راجع مستهل مقال الاقلوزا منتطف ابريل ١٩٤٠ صفحة ٣٦١

حاداً — ألمٌ شديد ونهات شوها الألم وشفاءٌ رمادية وضللات متصلة، وكان بعضهم قد بدت عندهم عوارض الجنون وبعضهم قد فقد وعيه. ومن هذه الأصابات إصابة جندي ظن أنه مات. كان منجره منظر جنّة ورائحته رائحة جنّة. لم يكن له نبض يحس ولا تنفس يحس. وكان جسمه مغطى بلطخ قرمزي وكانت أوردة مطبقة تيشق على الطيب تيشق أحدها لحقة فيه بالمقار الحبيب. فلما وجدته كان الدم الذي دخل الحقة منه أسود.

حقن هذا الجندي حقنتين بهذا العقار (صوليوسيتامين) بينهما أربع ساعات فزج من برائن الموت من الأمراض التي تمشت في فرنسا وغيرها من البلدان المحتلة في الحريف الماضي وظهرت بوادره في بريطانيا مرض الدبنتاريا الباشلية. وقد حُصرت معول مختلفة من دم ناقمين من هذا المرض واستعملت في مكافحته فأسفرت عن بعض الفائدة. ولذلك عنت اللجنة المختصة في أميركا بإرسال مقادير من هذه المعول إلى بريطانيا. ولكن يلوح أن السلفانيلايد سيكون المين الذي يؤخذ منه عقار لعلاج هذا المرض. ففي أحدث الأنباء من مستشفى جامعة جوتز هيكنز — وكلينها الطبية شهيرة — أن عقاراً مشتقاً من السلفانيلايد يدعى سلفا جوانايدن — واسمه الكامل Sulfanilylguanidine علاج نوعي فعال ضد باشلس الدبنتاريا وكذلك ضد باشلس التيفود وهذا العقار جديد ولم يكن متاحاً في يناير من هذه السنة ولكن شركة كالكو الكيماوية التي نصته وزعت مقادير منه على الأطباء لمتابعة امتحانه السريري.

وكانت ذات الرئة من الأمراض التي تسكت تسكاً ذريعاً في أثناء الحرب العالمية الأولى بالقوات المسلحة ذاتها وأحد من كل أربعة أصيبوا بها. ولكن الطب تقدم تقدماً عظيماً في مكافحتها بالمعول وبمقارين مشتقين من السلفانيلايد هما عقارا السلفايرادين والسلفاتيازول. فهذان العقاران علاجان نوعيان ضد ذات الرئة الناشئة عن ميكروب «التوموكوك» وقد يستعمل أحدهما مع أحد المعول في الحوادث الخطيرة. والسلفانيلايد نفسه ناجع في علاج ذات الرئة الناشئة عن ميكروب الترتوبوكوك. وعقار السلفايرادين من المواد التي يحملها كل جندي بريطاني فيستعمل عند الإصابة بمجرح أو في المرحلة الأولى من العلاج.

ولا يخفى أن الضربة القاضية في الاقلونزا انجاء على الأكثر عن طريق ذات الرئة. ولما كانت عقارات السلفانيلايد فعالة ضد البكتيريا الحديثة لذات الرئة فلا بد أن تكون ذات قائمة في انقاذ المصابين بالاقلونزا من الضربة القاضية. ولكن هذه العقارات لا تأثير لها — على ما يلوح — في ميكروب الاقلونزا فهو «فيروس» (راجع مقال الاقلونزا الذي تقدم ذكره) يخفى شدة كثيراً في أثناء هذه الحرب. وقد بذلت مساعي كثيرة لاشتقاق عقار من السلفانيلايد يطل فصل فيروس الاقلونزا فلم تمصر من نجاح ما حتى الآن.

ولكن النجاح في مكافحة الاقلوزا جاء من ناحية أخرى إذ كشفت طريقة لصنع لقاح ضد الاقلوزا . وكان الكشف اتفاقاً في ماسل معهد ركفلر بنيويورك . ففي نوفمبر سنة ١٩٣٩ كان الدكتور هورسفول Horsfall والدكتور ليفت Lennette بحريان التجارب بنات عرس ملقحة بمرض الاقلوزا واتفق أن أصبحت أربعة من هذه الحيوانات بمرض يصيب الكلاب ويرف باسم Distemper . فلما حضر مصل من هذه الحيوانات الأربعة ظهر أن الحقن يؤتي الحيوان المحقون من الاقلوزا . ذلك بأن الحقن بهذا المصل يؤد في الدم أجساماً مضادة الاقلوزا . وتعددت الاستعمالات ثبت أن هذا المصل ينشئ مناعة ضد الاقلوزا مداها سنة أشهر . وقد يكون مداها أطول من ذلك . ولكن فعلة الصحيح لن يعرف قبل أن تتاح تجربته في حالة طارئة تنفي فيها مرض الاقلوزا . غير أن جميع التجارب السريرية والمطوية نشر بالنجاح . وقد طم عشرات الآلاف من الأميركيين به وأرسلت مئات الآلاف من جرعات هذا المصل الى بريطانيا في أثناء الشتاء الماضي

وحى النفوس من الأمراض التي تنفسي في الحروب . وهي أنواع منها نوع متوطن في المكسيك وشيل والجزائر وبلدان أخرى معظمها استوائي . وهو يصيب الجريذان وينقل منها الى الانسان بالبراغيث وحشرات أخرى . ونوع أخرى يعرف بالأوربي وهو أشد وأعتق من الاول . وقد فلك فتكا ذريعاً في أثناء الحرب العالمية الأولى في سوريا وبولونيا وروسيا وهو مرض يصيب الانسان وينقل من امرى الى آخر بالقل . وفي البلقان بقية منه مخبئة . وفي امريكا نوع آخر يعرف باسم « الحمى الرقطاء » أو « حمى الحبال الصغيرة الرقطاء » . وهو مرض يصيب العنّان وينقل الى الانسان بواسطة القراد tick ومع انحصاره في مناطق المراعي في الشمال الغربي من الولايات المتحدة حدثت اصابات به في الساحل الشرقي

ووجه الشأن في ذكر « الحمى الرقطاء » جنباً الى جنب حمى النفوس الفاكهة ان طبيباً أميركياً يدعى كوكس كشف من عهد قريب وهو يبحث في « الرقطاء » طريقة دقيقة بارعة لصنع مصل يقي من النفوس . فم سبقه باحثون الى صنع المصل ولكنهم واجهوا مشقة عظيمة في صنع مقادير وافرة منه . فانخذ الدكتور كوكس جنين الفرخ (الكككون) في البيضة مزدراً له . ذلك بأنه تقب في البيضة تقباً بعد انقضاء حبة أيام أو ستة على حضنها ثم أدخل الميكروب في كيس الصفار فوجد أن الميكروب يتكاثر هناك تكاثراً عالياً وبذلك حُلّت مشكلة « المنادير » و« التفقة » التي حالت دون صنع المصل قبلاً . وقد صنع أحد الماسل الأميركية ألواناً من الجرعات بهذه الطريقة وأعطيت لجمعية الصليب الاحمر الأميركي لتجربتها في بلد بمجنوب أوروبا الشرقي يكثر النفوس في احد مناطقه ولكن الأحوال السياسية حالت دون ذلك . فاستعمل بعضها في مختاريا

بشار بن برد

في الحرب

وكنا اذا دب العدو لخطنا ورائنا في ظاهر لا رايه
ركنا له حيراً بكل مثقب وايضاً لتتقى السماء مضاربه
وحين كجفع الليل برحف بالحصى وبالشوك والخطي حراً مثاله
غدونا له والشمس في خدر أما نطالنا والطل لم يحجر ذاته
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ويدرك من نجى الفرار مثاله
كان مثار التفع فوق رؤوسنا وآسافنا ليل نهارى كوا كه
بتألم موت النجاة إتنا بنو الموت حقائق علينا سبانه
فراحوا تريق في الأسار ومثله تيليه ومثل لاذ بالبحر عاربه
اذا الملك الحار صبر خدء شينا اليه بالسيوف نماربه

البقريّة والجنون

إيلي آدم

فكرة العلاقة بين البقريّة والجنون ليست من الأفكار الحديثة ، فقد لحظها القدماء وأشاروا إليها ، والمعروف عن أفلاطون أنه كان يتحدث عن جنون السراء المقدس ويؤثر عن أوسطو قوله « المعززون في الفلسفة والسياسة والشعر والفنون كان يطلب عليهم الزوج الخ الجنون والاكثاب » ، ولج ذلك درايدن الشاعر الإنجليزي وعبر في شعره عن « اقتراب الذكاء من الجنون وإن بينهما فاصلاً دقيقاً رقيقاً » وأكد هذه الفكرة في الأذهان وأرسخها على مرور الأجيال كثرة اتفاق البقريّة والجنون

ومنذ سنة ١٨٠٠ أخذ البحث عن العلاقة بين البقريّة والجنون يتحوّ عرواً طبياً ، وقد وجه شوينهاور شيئاً من الالتفات الى هذه الناحية ، وفي سنة ١٨٣٥ ظهرت أول ترجمة لسقراط من ناحية تطبيق المعلومات الجديدة عن العلاقة بين البقريّة والأمراض العقلية على حياة العظام وكبار المفكرين وقد كتبها ليلى Leint ، وفي سنة ١٨٥٩ ظهر كتاب مورود دي نور وقد تناول المسألة من الناحية السامة ، وقد اعتبر البقريّة حالة من أحوال الأمراض العقلية سببها فرط احتياج الفخ ، ولم يحاول مورود تحديث البقريّة أو أن يلمح بها معنى من المعاني النسبية ، وهو يعتبر الرجال الذين قاموا بأعمال عظيمة في أية ناحية من النواحي عقريين دون النظر الى اختلاف بنائهم النفسي والذين يشابهونه على آرائه لا مندوحة لهم عن الاعتقاد بأن كل الذين تبعدوا بمحاولات الأعمال كانوا مجانين ، وقد ظن مورود أن رأيه لا يمكن أن يقرب اليه الشك لأنه كشف عن الكثير من أعراض الجنون في سير البقريين ، وقد أحصى حالات كثيرة من هذا السيل قبلها المؤلفون الذين جاءوا بعده وترسموا خطواته وتبوا عليها وأضافوا إليها ، وزادوا مركزهم قوة بإضافة استكشافات جديدة ودراسة حالات طريقة

ومن أوفى المؤلفات في هذا الموضوع كتاب لموروزو عن « الرجل البقري » وقد أثار زوايج من الخلافات ودارت حوله مناقشات حادة وجدل عنيف ، وهو على شمول بحثه واتساع نواحيه وغزارة معرفته لا يحاول تعريف البقريّة وتحديد مآلها. وفي الفصل الذي عقده للتحدث عن

نسبوسميت بقية يذكر لنا ان البقيرين في الجانب «ساختو اناس» مرودو القدم وهرري ان المنقرة تشبه الجنون من نواح كثيرة وقد أوضح في هذا الكتاب ان بعض البقيرين — اذا أغصنا عن بعض شذوذهم — كانوا ابرياء من الجنون، وهو يذكر في قائمة هؤلاء سبنوزا وكولومب وداتي وميشيل الخبوز، ولكنه عاد بعد ذلك وشيّر رأيه واعتقد اننا لم نلمح مظاهر الشذوذ وآيات الجنون في حياة بعض البقيرين لنفس معلومتنا عنهم أو لأنها لم تسترغ نظراً

وفي القرن العشرين ظهرت بحوث مختلفة في هذا الموضوع. ويعتقد الكثيرون انها اكدت ما ارثناه مفكر اليونان. ومن الباحثين الذين يقولون بذلك البحامة الألماني ولهم لايخ ايكباوم، فهو يثير الجنون عنصراً من العناصر الرئيسية في تكوين البقرة، ومن انصار هذا الرأي البحامة الانجليزي (نسبت) وقد تنع في كتابه عن «جنون البقرة» آثار الشذوذ ومظاهر الجنون في حياة الكثيرين من البارزين في نواحي الحياة المختلفة

والعلوم العقلية قائمة على التجربة، وكل ما نلناه عنها مستمد من التجربة والملاحظة وقد عرفنا من التجارب ان هناك ضرراً من الاضطرابات النفسية تنتهي بفقدان الوعي وانسداد الاعصاب، وفي احوال معينة أخذت القوى العقلية في الضعف والاعلال حتى يحجز المريض في نهاية الأمر عن العمل عجزاً تاماً، وبهذه الطريقة العملية المحضة استقر رأي الباحثين في الامراض العقلية على وجود ألوان مختلفة من الامراض العقلية لكل منها مظهره الخاص وسيره المعروف. وبموازاة حالات المجانين الذين لا موضع للشك في جنونهم بحالات عقلاء الناس ودراسة الميزات والفوارق النفسية بين الاثنين وصل علماء النفس الى معرفة الكثير من علامات الجنون ودلائل الثبات الاعصاب

ويحسن ان نلاحظ هنا ان السمات المصاحبة لبعض الامراض العقلية لم تكن هي في بادئ الامر الدليل على وجود تلك الأمراض، بل الأمر على نقيض ذلك فقد أدرك العلماء أهمية تلك السمات بعد دراسة عناصر المرض، مثلاً في الاوقات السالفة لتقدم الامراض العقلية كان خداع الحواس يفسر تفسيراً صوفياً ومن قيل ذلك الرؤى المقدسة ورؤية الغاريت، ولكن دراسة الأمراض العقلية هدّت علماء الأمراض النفسية الى أن خداع الحواس في غالب الاوقات من السمات المصاحبة للأمراض العقلية

وبدراسة سير الامراض العقلية وما يطرأ عليها من تطورات وما يفتقرن بها من علامات استطاع علماء النفس ان يشخصوا الامراض العقلية في مراحلها الاولى حيث تتيب آثارها عن صيوان الكهنة، وهذا كان من نتائج الملاحظة وتكرار التجربة ولكن كل تجربة جديدة تحمل في ثناياها مشكلات جديدة، وذلك لان التهج العلمي

الصحيح يقتضي أن نستخلص النتائج من التجارب والملاحظات ، وقد توفرت التجارب الجديدة
النصريات السابقة لأنها تناقضها مناقضة واضحة أو لأنها لا تنطبقها
من أمثلة ذلك أنه قد لوحظ أن أمراضاً عقلية كثيرة مثل البارانويا وأنواع الفلاخوليا
والشلل العقلي كانت مصحوبة في الغالب بخداع الحواس ، ثم كشفت التجارب بعد ذلك أن كثيراً
من البقرين كانوا مستهدين لخداع الحواس قبل استخلاص من ذلك أن هؤلاء البقرين كانوا
مجانين ؟ هذا هو الاستنتاج الذي انتهى إليه مورر ولبروزو ، ولكن هل هو استنتاج منطقي
جاء على سنن التجربة والأصول العلمية ؟

وواضح من ذلك أن مورر ولبروزو ومن لف لفهما يأخذون مسألة أن خداع الحواس
لا يحدث إلا في حالات الجنون قضية مسلمة وحقيقة غير قابلة للنقض أو التعديل ، في حين أننا
قد نلتقي برجل قد احتل ميزان عقله وشرده ففكره وفقد وعيه فلا يرى مندوحة عن وصفه
بالجنون ثم نلتقي برجل آخر قد أتى بأعمال باهرة أثارت الإعجاب والدهشة وهو يتصرف تصرف
من يمي ما حوله ألا يقتضي ذلك أن نعد مثل هذا الرجل مانلاً بلا ريب ؟

قال شارلز لامب « من المتع على العقل أن تصور شككس مجنوناً » وفي رأيه هذا كثير
من الحق والاحالة ، على أن جيتي معروف أكثر من شككس ، وقد كان مثلاً للرجل الكامل
الشخصية المتعدد التواحي ، وقد حاز إعجاب من عاشروه جميعهم ، عده قوم العجوبة من
أطبيب البشرية ، وقد ترك أثراً عميقاً في نفوس الذين كان لهم حظوة لقائه والتعرف إليه ، وقد
كان مثلاً للرجل المكتمل العقل السليم الفهم ، وقد كان جيتي نفسه هدفاً لخداع الحواس وذلك
باعتراؤه نفسه قبل استخلاص من ذلك أنه كان كذلك مجنوناً ؟ أليس الأقرب إلى القول
في أمثال هذه الحالة أن نعترف بأن حساباتنا خداع الحواس من علامات الجنون خطأ ؟ وإن
علينا أن نخرق بين خداع الحواس الذي يعرض للمقلاء وخداع الحواس الذي يلزم المجانين
وأهم علامة مميزة للعقل وصلاته وثبات بنيانه هي نمو العوامل النفسية نمواً متوازناً ، ولكن
عند تقدير ذلك النمو والنظر في تفاوت نسبته يلزم أن ننظر إلى مسألة الصحة والمرض نظرة
واسعة شاملة ، فقد يمتاز بعض الناس بسرعة المضاء والمقدرة التنفيذية والكفاية العملية ، وقد
يطلب على البعض حدة الشعور وبقطة الاحساس ، وليس عندنا هنا ما يبرر القول بأن أمثال
هذه المقول قد تجاوزت منطقة الصحة ، وهذه الفروق الكامنة في علاقة العوامل النفسية بعضها
ببعض هي التي يتكوّن منها تنوع المواهب واختلافات الاخلاق

وكما ارتقى الفرد في مراتب التقدم كثرت الخلافات ودقت التحوطات وتباينت العوامل
النفسية ومن ثم تنوع الزاوية التي تنظر فيها إلى المسألة من ناحية الصحة والمرض ، ونحن

حريون بأن ينسب التعبيرين عنديس أبق وأشدل من المقياس الذي ينسب به العاديين من الناس
ولنخبر الآن بعض العلامات المختلفة التي ظهرت في عظمة الرجل ونحاول أن نوضح الفرق
بينها وبين العلامات المميزة للجئون ، وقد جمع مورو وليردرو قائمة كبيرة بأسماء العظام الذين
قيل عنهم أنهم أصيبوا بخداع الحواس ، وقد جرت هذه القائمة فيمن اشتعلت عليهم أسماء نابليون
ولونز وبرنادوت وبيرون وكروموزيل وسفراط وبروتس

ولا يأتي لي أن نلاحظ هنا إن الأساس نفسه الذي أقام عليه الدعوى هو إلى حد ما
موضع الشك ؟ ولكننا نعرف إن يكثر الكثير من العظام خافتة بالكاذب والمبالغات والتأريف
والتواضع والأساطير والحرافات ، وكثيراً ما تخرج هذه الاختراعات الموضوعية بالحقائق استرجاعاً
يصعب منه التمييز بين الحق والباطل ، ثم يأتي كاتب من الكتاب وينقل عن الكاتب الذي
سبقه ويسل الفضة بقضها وقضيضها ويترها حقيقة تاريخية

وعندما الأمراض النفسية أنفسهم يجدون صعوبة في التأكد من حدوث خداع الحواس حتى
عندما يكون المريض مسالماً أمامهم ومحت مضطرب ومراتبهم ، ولدت شهادة المريض نفسه ولا
شهادة الأهل عيب كافية . ويعتمد أكثر الأطباء في ذلك على ملاحظاتهم الشخصية ، ولما
يتبع الحواس عندما تكون المسألة قائمة على التسليم بما نقله أحد الكتاب عن كاتب من الكتاب
الأوائل وقد روى بطوطارخ مثلاً أنه في الليلة السابقة لمركبة فيليبي ظهر شيخ يوليوس
قصر بروتنس ، هل تقبل هذه الرواية بلا مراجعة ولا تعقب ؟ أليس هناك ما يدعو إلى أن
نختبر الشاهد ونستفسره عن المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات ؟ ولكن هذا غير ميسور
عمله الآن وهذا هو النص « كان قد مضى هزيع من الليل وكان ضوء واهن يثبت في خيبة
بروتس وقد ساد السمت وأظلم المعسكر برمه وكان بروتنس مستغرقاً في التفكير الخيل إليه فجأة
أنه يسمع وقع أقدام شخص يسرق الخطى فنظر صوب الباب فرأى منظرأ مرعباً غريباً ،
رأى شيخاً يادي السكابة رهيباً قد وقف إلى جانبه ، فاجترأ بروتنس على أن يأله قائلاً
« من أنت ؟ » أياها أنت أم إنسان ؟ وماذا تريد ؟ ولماذا تأتي إلي ؟ فأجابه الشيخ « روحك
الامارة بالسوء يستراني في فيليبي » فقال له بروتنس بلا اكترأت « لكن ذلك »

ولم يذكر بطوطارخ علامة اعتمد في هذه الرواية فكيف قطع بصحتها اليوم ؟ أليس من
المحتمل أن يكون بطوطارخ قد نقل عن غيره أسطورة مائفة لا سند لها من الحقيقة ؟ ولكن
لتقرض أن الرواية صحيحة لا غبار عليها فهل هي كافية في الدلالة على خداع الحواس ؟ لقد
وقعت الحادثة في الليل فن المحتمل إلى حد كبير أن تكون حلماً مؤثراً خيال بروتنس وهو في
حالة اضطراب نفسي وثورة داخلية تخاله حقيقة واقعة

يردوني من كرومويل انه كان في شبابه مستلقاً ذات يوم في فراشه وقد انزله لاجاء
نظيره له امرأة ضخمة صراخ وقالت له « املك سمسج أعظم رجل في الدنيا » وكان من
يشبه ان كرومويل وهو مستلق في فراشه لم يكن قد أخذته سنة من النوم ومن النساء كانت
جلداً من الأحلام ؟

تروي من لوتر رويات من هذا القبيل ويمكن اختصارها لنفس هذا التفسير والنظريات
العلمية التي تقوم على ملاحظات مشكوك في صحتها لا يسع قرحاً في بسر وسهولة ، لا مفر من
غربة الاخبار التي تروي عن العظام والتثبت من صحتها حتى لا نحصل في استخلاص
النتائج من المقدمات

على ان هذه الروايات على ما فيها من مبالغات وأوهام تطوي على شيء من الحق ، فمن
الحقائق غير المتكورة ان خداع الحواس كان يمرض لرجل لاخلاف في سيرته وعظمة
شخصيته مثل حيتي ، وقد لاحظ علماء الامراض العقلية ان خداع الحواس الذي يعيب المجانين
له تأثير عاتل في قدرة بعض الاشخاص على استحضار تأثرات الحواس ، وهذه القوة تنمو
بدرجات متفاوتة في مثال هؤلاء الاشخاص ، والسورة المستحضرة في الجانب أصح من
الاصل سواء في تخطيطها او في ألوانها ولكن في حالات نادرة لوحظ ان قوة الاستحضار
قد سمحت وبلغت حدّاً من التفوق لا مزيد عليه الى حد أنها خارت تعادل في الوضوح والقوة
صورة الاحساس الأصل . وقد روي لمبروزو عن أحد المصورين انه كان يكفيه ان يتأمل
شخصاً ما مدة نصف ساعة ويستطيع بعد ذلك ان يستحضر أمامه صورة وعية له ويشرح في
رسمها بوضوح وثقة كأن صاحب الصورة لا يزال ماثلاً أمام ناظره . ومن الخطأ وإساءة
الفهم ان ننسب هذه المقدرة ضرباً من خداع الحواس الذي يعيب المجانين لانه الصور
يستدعي الصورة وفق ارادته وبسخرها لاغراضه القية ثم ينفيا بعد ذلك في حين ان الصورة
التي تخيف الشخص المضطرب الاصاب تأتي على غير رغبة . وكما ان الذاكرة تستطيع
ان تستدعي تأثرات الحواس فكذلك يستطيع النوم - الذي تحدثت عنه في المقال السابق
عن طبيعة اسفريه - ان يكون صوراً جديدة عليها طابع الخلق وبمهم الجدة ، وفي الاشخاص
ذوي الخيال القوي الحصب تصبح صور النوم الخالق سادة للصور التي تستدعيها الذاكرة في
الوضوح والابانة بحيث تدنو من الصور الحية الواقية . ولمبروزو نفسه يقول عن المصور مونتينا
Montina « كان يصور انه يرى صورة ماثلة أمامه قبل ان يشرح في تصويرها ، فاذا وقف
بعض الناس بينه وبين المكان الذي كان يشغل فيه الصورة امره ان يتخيل ناحية أخرى
ليتمكن من رؤية ما يصوره » . وقدرة الكثيرين من عظام الفنانين وبراعتهم في دقة الوصف

مرجعها هذه الصفة الملزمة لهم ، والاشخاص ذوي التوهم الدسري الحسب لا يستحق عليهم خلق عدد الضرر التي تجر ذوي التوهم الجديب والدس النقيم والذين يعيشون في عوالم الأفكار المبردة

وقد عرضت لبعض مظاهر الزحان حالات من خداع الحواس غير قائمة على الرغبة ، وأكثر من أنت بهم هذه الحالات من المسترقين في العبادات والانكار الدينية مثل الأولياء والتدبيين والمصلحين الدينيين . ولونو يزعم أنه رأى مرة الشيطان وقذفه بالدواة . وتختلف الآراء في اعتبار أمثال هذه الحالة من حالات المرض ، ففريق من علماء الأمراض العقلية لا يراها مرضاً وفريق آخر يراها من علامات احتلال النفل ، والذين يبترونها مرضاً يملكون ذلك بخروج هذه الحالة عن المألوف ، ولكن لو كان الخروج عن المألوف في حد ذاته مرضاً لكنت الجنونية مرضاً لأنها في صميمها ضرب من ضروب الشذوذ والخروج عن المألوف ومن الخاطئ المرفقة إن الإجماع قد يكون من البواش التي تساعد على حدوث خداع الحواس ، فالبيان العديد قد يرى في المكان المهجور إذا ما أظلم الليل صوراً وأشباحاً وبخال عزف الرمح وحفيف الأشجار ولولة وعويلاً ، والطفل القوي التوهم الذي فج في والدته قد يصور له الألم اللاذع صورته في السماء أو يسمعه صوتها ، وأمثال هذه الظواهر كثيرة وهي متوقفة على قوة التوهم ودرجة أسوأ . وقد كان لوثري ينقد بوجود الشيطان ولذا كان خداع الحواس عنده نعمة من ثمرات هذا الاعتقاد الراسخ . وروى القديسين والأولياء لا تحيى لنا أن ترميهم بالجنون فإن الرسل الذي وقت حياته على الدين واعتقد بصحة مذهبه اعتقاداً لا ينمو إليه الشك وآمن بوجود الملائكة والشياطين ليس من المستكر أن يرى في جيشان شعوره وفورة عواطفه رؤى دينية وصوراً قديمة ، وناهلون قيل الوقات النقية والحوادث الجسية كان يرى نجمة صاعداً في السماء . ومألة إن خداع الحواس دليل اضطراب العقل مستمدة من التجارب ، ولو أن التجارب أظهرت لنا أن خداع الحواس لا يحدث إلا في حالات اضطراب العقل لكان من حقنا أن نحرم باعتبارها علامة مؤكدة من علامات الجنون ، ولكن الواقع ليس كذلك فإن المشاهد أن كثيراً من ذوي العقول الراجحة والبصائر البيرة وكبار الشعراء والفنانين استمدوا خداع الحواس

وخداع الحواس الذي يصح اعتباره من علامات الجنون هو الخداع الذي يؤثر على الإرادة والوعي ويقتل مسؤولية الإنسان عن أعماله

وهناك مشابهة بين قوة التوهم عند الشعراء والفنانين وعلامات الجنون التي تميز فريقاً من المجانين ، فقد لاحظ الباحثون بين الملامات الدالة على المستويا الميل إلى الكذب وخداع

الغير ، وهذا الكذب لا تبعث عليه المصلحة الشخصية كالرغبة في الافلات من العقوبة وإنما هو من خلق التوهم ، وأكثر هؤلاء الأشخاص المصابين بهذا الداء ضعاف العقول ، ولكن قوة التوهم فيهم ناشطة دائبة وهم يخجلون ما بصورهم لهم التوهم حقيقة رافعة ، وبضمهم يميل الى غرائب المقارنات وعجائب المفارقات ويتوهم ملات خفية بين الافكار المتباعدة والمتكلمات المتناقضة ، ويكسب ذلك في بعض الأوقات تفكيرهم لمة زائفة وقد يحسب الناظر الملاحظي ورسم شعاعاً ويظن هوهم عبقرية ، وهم لا يكفون بالنكار ما يتهمون به وإنما يبتكرون قصة مخالفة للحق ، وبضمهم لا يكتفي بتشويه الحقيقة وإنما يضعون نكاتها حواشي وإضافات لا تمت إليها بسبب ، وهم يخلون ذلك ليثروا الإعجاب بهم والعناية بأمرهم . وهذا الضرب من التوهم موجود عند الشعراء والفنانين ، ولكنه عندهم ثمرة من ثمرات قوة الفكر في حين أنه عند مرضى العقول من دواعي الاحتلال ، وقد كان حينئذ طفولته يقص على أترابه أقاصيص من نسج خياله الخصب ويرويها لهم باعتبارها حوادث حقيقة وكان يجب من تصديقهم لما وفي المجانين والبقرين دافع لا غلاب له ينسب المصلحة الشخصية ولكنه عند المجانين ينتج الى توافه الأشياء وبضمهم يحمر على أهل الشتاء والحراب لتعلقه بفكرة مستحيلة خاطئة واعتقاده بصحتها ولا يثبه شيء عن متابعتها بشاية وإهتمام في حين أن دافع الخلق عند البقرين هو لب لباب أكل وأرقى ما في النفس الانسانية فهو الذي يمت العالم التحرير على نصاعة المشكلات الفكرية ويحدد الفنان على خلق الآيات الفنية الرائعة ويفري الفاتح العظيم بطلب السيطرة والاستلاء لا طمعاً في المال أو الجلاء وإنما لأن حب التملك والانتصار جزء من طبيعته وعصر من عاصر وجوده . ويمتاز كبار الفنانين بتدويع الحالات النفسية وتواليها وكذلك المجانين فهم هدف للتقليل بين الجنة والجحيم والنزوات الطارئة والبدوات المتعاقبة من علامات الامراض العصبية وبخاصة المسترباء ، ولكن المشابهة هنا سطحية خارجية ، لأن وفرة الحالات النفسية عند البقرين دليل الحياة وفرة اليقظة

ومن شبة عظام الرجال انهم كلما اتهموا الى غرض من الأغراض وبلنوا غاية من الغايات طمحووا بأبصارهم الى قمة أعلى وغاية أبعد فهم في قلق مستمر وتطلع دائم لا يطمثون الى حالتهم ولا يرضون عن أنفسهم ، والشعور بالصعادة والنبطة من المشاعر المضنون بها على العطاء ومن ثم قول أرسطو أن الذين برزوا في الفلسفة والسياسة والشعر كانوا دائماً مباليين الى الاكتئاب . ولكن هذا الحزن يختلف عن الجنون وهو نتيجة محتومة لتزكيمهم النفسي ، وأشس ما في الانسانية هو هذا الشعور بالنقص وعدم الاقتناع بالنفس ونعدان النزاء والسلوان في العمل والخلق الذي يمتاز به البقرين ، والذي يجعل الحضارة الانسانية مدينة لهم ومحسوبة عليهم

واستغراق الروح في التفكير، ودعوه من حوله قد يظهره في مظهر الجنون، لا يبي ما يحيط به، ولكن وراء ذلك التشبه في المظهر الكثير من أوجه الخلاف والتباين، والجنون لا يحوز عن إدراك حقيقته، بل هو في الحقيقة غير متفكر، وفقدانه القدرة على الافكار، وتصرف التفكير، ومن ثم لا يبي ما يحيط به، أما دعوى النماء والتفاني في نفسه فترط قوة الانتشاء وتشتت بين عقل شارد يخلو الخلق، وعقل يستطيع ان يتابع تفكيره ويحصر جهده في ناحية، بينما لا يبي سواها، ومن خصائص العقريين علاقتهم باليشة التي يمشون فيها، والرجل الذي يشتر بتواحه الفاقة ويمتاز من صفة النسيان، والتفكير، والعقريه سرعان ما يجذب حوله طائفة من المعجبين به القادرين على كفايته، ويكثر ما ينسب اليه مؤلفاء المتكلمون والأدباء، فإذا كان من ذوي العقريات المبكرة فإنه يكون قد توفد الملقى والأطراء وألقب بالاعجاب والإعجاز، فإذا وجه اليه ذلك نقد فمن الطبيعي ان يتأثر به أكثر من غيره من ألقوا النقد وتوعدوا الفراجة، وربما قال في ذلك وحسب الناقد عدو الشخص، وقد يتند غصه من الناقد الى معاصريه جرمهم، ثم يجيء العالم النفسي السطحي ويضرب هذه الحالة مثلاً لطئون الشعور بالاضطهاد غير ناظر الى الملابس التي جعلت العقري يدور في هذا المظهر الشاذ.

والرجل العادي قد تعود ان يتكلم بميله ويسطر على أهوائه التي تمارض المجتمع وتخرج على تقاليد وسنة وألف الملازمة من سلوكه وأحوال اليث حتى لا يبدو شاذاً متنافراً، ولكن الرجل العقري المشغول بمراقبة دخائن نفسه وصور نوحه قد لا يلتفت الى عتائر الحياة اليومية ولا يبا بتفصيلاتها ولذا يدعو على حقيقته. ومن السهل ان تستغيب بميله ونفث على طيمة أهوائه لأنه لا يمتحن من الدوائر والتكتم واختفاء أهوائه وميله على خلاف الرجل العادي. وقد قيل في تأكيد العلاقة بين الجنون والبقرية ان كثيراً من العقريين أصيبوا بالجنون مثل لوكريشس وتاسو ولينار وسوفت وهلدلين وموباسان وان بعضهم مات متجراً مثل لسنج وكلايست ونوفال، ولكن مسألة العلاقة بين الجنون والبقرية لان بعض العقريين أصيبوا بالجنون أو ماتوا متحجرين من السائل التي لا يثبت فيها إلا عن طريق التجربة والمشاهدة وسبيل التجربة هنا هو عمل احصائيات دقيقة تبين عدد العقريين الذين أصيبوا بالجنون وتثبت ان نسبة عدد المجانين في العقريين أكثر من نسبة عدد المجانين في غيرهم من الناس، ويتقضي ذلك ان تكون هذه الاحصائيات شاملة لصور القديمة والحديثة والمتحفظ الامم وان تراعى فيها الدقة الثالثة والخطية الكاملة، ويندرج بعد ذلك ان نبني سكاماً صحيحاً خالياً من الغرض وموسوماً بالعلم العلمي ومجمل القول ان هناك تشابه بين الجنون والبقرية ولكن هذه التشابهات ليست متناهية القرابة، وهي كالشابهة بين المذهب الارثوذكسي والناصري الأسمر لا تمددوا المظهر العقري فوق عصره ويسبق حيله وكثيراً ما يباه به فيقر بالجنون.

الدار الإسماعيلية

في مصر

— ٢ —

لصاغ عبد الرحمن زكي

دولة الممالك البحرية

شيدت دولة الممالك الأولى القصور العالية التي تتنافس الامراء في زخرفها وفرشها بشي
المفروشات مما جعل لجميع الفنون الزخرفية سوقاً واسعة في مصر ، فارتفعت الصناعات ووجدت
الاسواق للعمل في تلك المصنوعات . وقد أفاض المؤرخون في وصف عظمة تلك القصور
بل وفي مقدار عنايتهم بالشوار الذي كانوا يمدونه لأولادهم مما بطلنا أحسن فكرة عن مقدار
البلخ والترف في ذلك العهد . وأمانا مخطقات قصر (قوصون) المعروف الآن بقصر (بشاك)
وخذ العامة (ردق) التي تقع الى الجنوب الغربي من مدرسة السلطان حسن . وينطبق على
هذا القصر اسم بيت السلطان . وقد شيد الامير (قوصون) ثم ملكه الامير يشك وأخيراً
كان من نصيب الامير (انقردي) الذي تحول اسمه الى (ردق) — وعماره هذا القصر العظيم
حمل طابع القرن الرابع عشر

ولا تسمى قصر (بشاك) وقصر الامير (يسري) بجانبه مما أعاد التسمية لهذا الشارع
بعد الدولة الفاطمية وبقيت حتى اليوم ويشترك في أسلوبه العاري مع قصر يشك . وقد بني قصر
بشاك في مكان باب البحر احد أبواب القصر الفاطمي الشرقي . وكان فيه الأصل ليدرك الدين
يكتاش الفخري ثم آل الى أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون بطريق الشراء الذي انقضاء
من جديد وذلك سنة ٧٣٥—٧٣٨ هـ

وقد احتفظ الجزء المتوسط لقصر بشاك الى الآن بقسم كبير من وجهته التي تطاول
السماء رغم ما لحقه من تدمير وتبدل خلال السنين التي مرت عليه والى جانبي هذا الجزء المتوسط
المالي المنسل على قاعة كبيرة ذات أربعة أبوابان . أما الابوابان الجانبان البحري والقبلي

(١) كتاب وصف مصر — ج ١٥ — من ١٦٥٠ و ١٦٥١

(٢٨)

جزء ٣

مجلد ٩٩

فتكونان من عمد تحمل طارات بلوها شرقت صغيرة ذات عمد رشيقة ، ولحق به حجرة صغيرة لها سقف منقوش مذهب به اسم بشاك . وقد عثرت إدارة حفظ الآثار المصرية بهذا القصر وهذه القاعة فأزالا الأبنية الحديثة من الوجبة وأنشأت سقفاً جديداً فوق صحنها .
 ومن البيوت المصممة بنفس الأسلوب المماري قصر (البناق الحسامي) (خير بك) الذي بقي منه اليوم قاعة قديمة . ونذكر أيضاً القاعة الكبيرة في قصر الأمير (طاز) التي بقيت من ذلك القصر التوسيع والتي مازالت تحفظ بعض الآثار الملوثة والكتابات المنقوشة وآثار بعض الزخارف الهندسية

ولم يبق من قصر محمد محب الدين الموقع (١٧٥١ هـ) اليوم إلا القاعة النادرة التي أوقف اليوم باسم قاعة عثمان كتحدا أحد أصحابها^(١)

وفي أحد أحياء القاهرة بيوت أخرى على الطراز المماري للقرن الرابع عشر منها تلك القاعة القديمة التي تحولت وأصبحت تعرف باسم (تبة النامية) . والقاعة الرحبة التي يطلق عليها على شارع الأزهر الجديد والتي يطلق عليها اسم قاعة دار (محي الدين يحيى) وتعرف اليوم باسم مسجد نرف الدين وهناك أيضاً الصالة المجددة التي فُرمها اليوم باسم مدرسة حوش آدم (أو مسجد) ولا جدال في أن هذه القاعة بقية من بقايا قصر قاهري منيف وهي تشتمل على جزء متوسط يحيط به إيوانان جانبيان ، وهي كاملة الزخرف . وهذه المدرسة تشتمل على مجموعة متباينة في التفاصيل . فالقاعة تحمل تاريخ ١٣٦٧ أو ١٣٧٧ والذهليز يحمل اسم طاشنور (١٣٨٦) والذهليز الثاني عام ١٤٦١ ولأذنة ونجديد بناء الردهة والمدرسة يحملان تاريخ ١٤٨٩ ، وكان هذا الأمير من عطاء رجال عهد قايتباي

ومقعد قصر ماناي — (مقعد بيت القاضي) وهو كل ما تبقى من مخلفات قصر عظيم وبمطلي لنا صورة واضحة من العبارة الملوكية . وتقايرب عمارة هذا البناء مع مقعد السلطان قايتباي الذي شيده بالقرب من مسجده في القرافة يؤيد التألف والتناسق لطراز البناء المدني في ذلك العصر

الدور المصرية في العهد التركي

والآن نتقل الى الدار في العهد التركي (١٥١٧ م)

لدينا في القاهرة ورشيد ودييات أمثلة عدة من الدور المصرية منذ القرن السادس عشر ومعظمها يحتفظ بظاهاه الأصلي وتكاد كلها تتفق في هندستها وأن احتلفت في مواد بنائها . وأول

(١) راجع كتاب الموزعة المروعة من ديفونشير Rambles in Cairo — ويقع هذا البيت بالقرب من بيت النامي بالجانب

ما نلاحظه أن الطراز المعماري الذي اتبع لداخل البيوت واحد، فالباب اختفي مخبئاً من ضلعة واحدة مزخرفة من الخارج بحماية كبيرة على شكل حامة بيضاوية تحيط بها أربع أجمات صغيرة موزعة على الأركان وهي ملونة باللون الأحمر وأطرافها الخارجية باللون الأبيض. وكثيراً ما تقابل الحامة الكبرى آية قرآنية أو عبارة منقوشة في وسطها « وهو الخي الباني »

وهذه النقوش قد تكون سوداء أو بيضاء اللون وكان لأكثر أبواب الدور ستاعة حديدية وتقل خشبي. كما توجد في الغالب درجتان من الحجر لا يتواءم بهوة الجواد أو التمار وتمد عنها حلقة حديدية تستخدم في ربط حمار صاحب الدار^(١)

ويملأ الباب عقد متونر ضجافته محلاة ومزخرفة تحيط به من أعلاه نقوش عربية. وفوق المقد « متونر » من خشب مربع الحُرط متوسط المقاس

وبطابق الدور الأرضي نوافذ خشبية صغيرة عالية لا تسمح للساكن في الطريق أو المشتري بظهور جواد بمشاهدة ما يجري في داخل الدور. أما نوافذ الطابق العلوي فتبرز في الغالب قدماً ونصف وكانت تصنع من خشب الحُرط فلا يخترقها سوى القليل من الشمس والتور أو الهواء. وفي كثير من الأحوال لا يكون خشب الحُرط ملوناً بل يترك على طبعه لونه الأحمر — تصف عليها الغلل الفخارية أثناء الصيف، وتملأ الشريعة نافذة مستطيلة من خشب الحُرط أو الأساج الخشبية أو الزجاج الملون

وتتألف الدار في الغالب من طابقين أو ثلاثة. ولكل دور من الدور الكبيرة فناء مربع الشكل (حوش) يصل إليه من الباب الخارجي بواسطة طرفة على شكل كوع ذات لفة أو لفتين وذلك لكي لا تسمح للساكن في الطريق بمشاهدة أهل الدار وهم في القضاء وعلى بين الطرف أو يسارها توجد « مصطبة » مشيدة في أحد جانبي الطرفة يجلس عليها حارس الدار أو الخدم. وتوجد في الحوش بئر متوسطه أحياناً أو على جانب منه وبجانبه الأزار التي تغل إليها المياه في قرب الجلد بواسطة السقاين من الخارج لترشيحها وتجريدها لاستعمالها بالمنزل. وتطل النوافذ الرئيسية في الدار على هذا الفناء. ويلاحظ وجود عدة أبواب في الحوش تصل بها إلى أجزاء الدار منها باب الحرم (مثلاً) وهو المدخل الموصول إلى بئر السلم ويؤدي إلى سكن رب الأسرة والسيدات والأطفال. وهذا الباب يكون دائماً أقرب إلى الداخل من الطرفة

وفي الدور الأرضي توجد غرفة يطلق عليها المندرة (المنظرة) يستقبل فيها الزائرون من الرجال ولهذا المنظرة نافذة كبيرة أو نافذتان من الخشب

(١). راجع كتاب المشرق الإنجليزي إدوارد ريطام إي. ص ١ — ١٨ Manners and Customs of the Modern Egyptians

في المنظرة يوجد جزء من الأرضية عند بين الباب والحياب المنبل يخفض بسبع بوصات عن أرضية المنظره ويطلق على هذا الجزء « درقاعة »

في دار الأعيان تملط أرضية « درقاعة » المنظرة بالرخام الأبيض والأسود وتقطع الصغيرة من البلاط الأحمر اللطيف المنسج للتركيب، وفي وسط « الدرقاعة » نافورة (دسقة) نصب ماءها في حوض غير عميق أرضيته من الرخام الملون ملون الأرضية المحيطة بها ، ويقابل الباب في نهاية الدرقاعة رفاً من الرخام أو الحجر يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام يطلق عليه اسم « السنة » تقوم على عقدين أو أكثر وفي بعض الأحيان ترتكز على عقد واحد يوضع تحتها قبل من الأدوات المنزلية كاللخفرة والحوض والأبريق المستعملين للتنسيل قبل وجبات الطعام أو بعدها أو للوضوء كما توجد بعض الأواني الزجاجية وقناجين القهوة فوق العفة. وتكون هذه الصفة أحياناً مبطنة بالرخام أو البلاط على أسلوب النافورة

والاستراد أو الجزء المرتفع من أرضية المنظرة يسمى « الديوان » وفي هذا المكان تفرش الحضر والبسط وتوضع المقاعد على الأرض ملاصقة للجائط خلفها الومائد والطاقس . وكثيراً ما يسرى في داخل جدران هذه الغرفة دولاين أو ثلاثة جبهة الصنع أبواباً من الخشب المشغول برشاقة وفي نجيلين وأحياناً تكون مطعمة بالمعاج أو الصدف أو الأنوس . والسقف الذي ينطلي الديوان مصنوع من الخشب، ذو مبدات (عروق) محفورة بعد الواحد من الآخر قدماً فديكون ملونة أو مذهبة . أما جزء السقف الذي ينطلي الدرقاعة ليت أحد الأغنياء فكثيراً ما يكون أكثر زخرفة وأبداعاً وتلوّناً في الألوان . وفي منتصف السقف يعلق القنديل النحاسي الجليل

وفي بعض البيوت توجد غرفة أخرى تسمى للفرد تكون على ارتفاع ثمانية أو عشرة أقدام (٣ متر) فوق الدور الأرضي تستخدم كمنظرة لها واجهة مكشوفة ذات عقدتين أو ثلاثة وسياج قليل الارتفاع . كما أن هناك أيضاً مكاناً مريباً يطلق عليه اسم « التخبوش » له واجهة مفتوحة في منتصفها عامود من الرخام ليحمل البناء الذي يطوء صفت على جانبيه المقاعد الخشبية الطويلة المثقفة الصنعة والتي ينطليها نوع من الأنسجة الحريرية . وفي أثناء الصيف ترش أرضية قناء (الحوض) بمياه البئر فتكسب البيت نسيباً منعماً

ومن بين حجرات الدور العلوي في الجزء الخاص بالمرحوم توجد غرفة يطلق عليها القاعة العلوية وهي قاعة ذات سقف طالع على كلا جانبيها أيوانان أحدهما أكبر وأرفع من الآخر . وجزء من سقف هذه القاعة الذي ينطلي « الدرقاعة » وينسبها إلى أيوانين كما قلنا يرتفع عن الجزئين الآخرين وبه « محرق خشبينة » اجنابه مؤلفة من ألواح الشريبات وتطوعها قبة صغيرة وقد لا نجد في هذه « الدرقاعة » نافورة ولكن نجد أرضيتها مبلطة بطراز أرضية المنظرة

وهنا توجد صفة جميلة وبعض الدواليب الأنيقة وعلى جدران هذه القاعة نجد عدد من الفوف من الخشب مثبتة على كوابيل مزركشة تحمل عليها بعض الأواني الخزفية وفي الجانبين القاعة أحمر غرف البيت وهي صالون الدار الإسلامية — وتقام في هذه القاعة حفلات الأسرة وتجلس الموسيقيات (العوالم) تفتن على الدفوف والعود والنايون والمطلة — ويلاحظ في تخطيط الدار المصرية أنه ينقصها النظام الذي يراعى اليوم فالغرف مختلفة الطول وأرضياتها ليست في مستوى واحد ويخذ الثقل يخلو الأسان عدة درجات، والغرف المتجاورة يفصلها الحائط

بعض الروايات المصرية في القاهرة

والآن نبل أن نبحث هذا المقال نرجع على بعض أحياء القاهرة القديمة لتأتي على وصف بعض دورها الأثرية التي ما زالت إلى اليوم قبلة عشاق الفن الإسلامي وعبي الهامة القاهرية (١)

بيت جمال الدين الزهبي

بحارة ختقدم سنة ١٠٤٧ هـ — (١٩٣٧ م)

أشياء هذا المنزل الحواشي جمال الدين الذهبي كبير التجار بمصر وهو يكاد يكون باقياً على حاله الأولى ومظهره الخارجي لا يستوقف النظر على هذه مظهره الداخلي فإنه جدير بالاعجاب فعلى حوشه الطيب يشرف من الحجرة القبلى مقعد ذو عقدتين متكئين على عمود من الرخام، ومن الحجرة الشرقية تطل القاعة الكبرى ذات البوابتين توسطها (دراقة) مغطاة بقعة صغيرة من الخشب. وجدران القاعة مكسوة أسفاطاً بوزرة جميلة من الرخام الدقيق وبصدر القاعة شريحة أطيفة مطالة على الشراع تملؤها شبايك صغيرة من الجص المحلى بنقش من الزجاج الملون، وسقفا القاعة والمقعد مغطيان بالدهان المموء بالذهب. وبما بلغت النظر في هذا البيت حكامه الصغير الكامل النظام فضلاً عن السلام الكبيرة المؤدية إلى أجزاء المنزل المختلفة

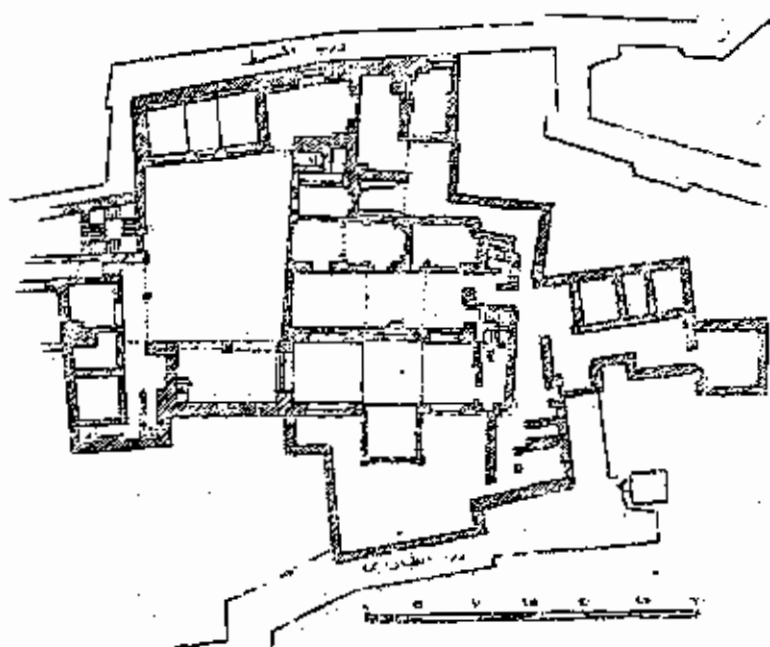
سراى المسافرة برب الطبروى

سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م)

أشياء هذه السراى محمود محرم أحد تجار القاهرة. وهي مكونة من قسمين أحدهما بحري وأشياء سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) وتتوصل إليه من درب المسط. والاخر قبل أشياء سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٩ م) وتتوصل إليه من درب الطبلأوي إلا أن القسمين ارتبطا أحدهما بالآخر وصارا بيتاً واحداً يتوصل إليه الآن من درب الطبلأوي

(١) راجع كتاب Edmond Pauty: Les palais et les maisons d'époque Musulmane au Caire

الجزء البحري — يتكون من «دركاء» بها على اليسار باب يؤدي إلى القسم القبلي وباب آخر يؤدي إلى حوش مكشوف به على اليسار (الشرقي) باب يؤدي إلى سلم ثانوي يوصل إلى الغرف العلوية ويؤدي السلم قاعة ذات إيوانين بينهما (درقاعة) مفروشة بالرخام الملون . ويؤدي هذه القاعة باب يؤدي إلى القسم القبلي ثم تحتبوش سقفه تشرب بلدي جيل



رسم الدور الأرضي بقصر المسافر خاتمة نقلاً « عن بوتي »

أما على اليمين ففي الجهة البحرية قاعة بسيطة عليها من الغرب السلم الرئيسي المؤدي إلى جميع غرف الدور العلوي وأهمها القاعة الكبرى الراكبة فوق « التخبوش » والمفتلة على مجموعة قيمة من الرخام والتجارة وخصوصاً الشخصية . هذا فضلاً عن الممرات الحُرط المحيطة بالحوش الجزء القبلي — يتوصل من بابها الأخير إلى ردهة فسيحة تؤدي إلى قاعة بأرضيتها فسقية وخاية دقيقة وجانبها القبلي كله من الحُرط والسقف لا يقل نقامة عن سقفي التخبوش والقاعة العليا . ويلاحظ أن هذه هي السراي الأصلية بعد هدم أجزاء منها من الغرب والجنوب بسبب ظلمها وبعد وفاة منشئها آلت إلى الأسرة العلوية الحميدية فاحتفظت متراً لضيافة الواردين إلى مصر من الكواء ولذلك عرفت (بالمسافر خاتمة)

منزل إبراهيم كنخرا الساري

حوالي سنة ١٢٠٩ هـ - (١٧٩٤ م)

هذا المنزل بحارة (منج) التي سميت بهذا الاسم نسبة الى مسيو (منج) أحد علماء الحملة الفرنسية أنشأ إبراهيم كنخدا الساري وجسمته بسيطة ليس فيها ما يهيم سوى الباب العمومي والمشرية التي تلوه، وبالجانب القبلي للحوش تحشوش ومقعد بابيه مشحون بالزخارف وسفله يؤدي الى باين : الايمن منها يوصل الى بعض حجر المنزل ثم الى القاعة الكبيرة والحمام ، والباب الايسر يؤدي الى المقعد والجناح الشرقي . وتحتصر مكانة المنزل في أن الحملة الفرنسية أنشأه أثناء إقامتها بمصر سنة ١٢١٣-١٢١٦ هـ (١٧٩٨-١٨٠١ م) خصصته لإقامة مصورها وبعض علمائها ومنهم ديجو الرسام المشهور ومالوس ولا تكريه وتيراج وجالوى . وفيه علت الأبحاث والرسوم القيمة التي نشرت في كتاب (وصف مصر) وفي المدة من سنة ١٩١٦ الى سنة ١٩٢٦ أقام به جلياردو بك متحفاً باسم (يونانيرت) أغلق بعد وفاته ثم أخلى من السكن سنة ١٩٣٣^(١)

بيت الشيخ عبد الوهاب الطبروزي

الشهر بيت « الحجي » - بالدرب الأصفر ١٠٥٨-١٢١١ هـ (١٦٤٨-١٧٩٦ م)

هذا المنزل مكون من قسمين . أحدهما : وهو الجزء القبلي أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبروزي سنة ١٠٥٨ هـ - (١٦٤٨ م) وأهم مشتملاته القاعة الكتاتبة على عین الداخل ثم القاعة الكتاتبة المشتملة على مجموعة قيمة من المشریات والشايك الحارط الدقيقة الصنع . أما القسم الآخر وهو البحري فقد أنشأه الحاج اسماعيل بن الحاج اسماعيل چلي سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٦ م) وأدمجه في القسم الأول وجعل منها منزلاً واحداً . وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول فهو يشتمل أولاً على قاعة بحرية كبيرة تلوحها حجرة مثلها ولكل منها وجهة بحرية من الحطب الحارط الجليل مشرفة على الحديقة الكبرى ويقابل هذه القاعة قاعة أخرى غربية تنوسطها فسقية من الرخام الدقيق وبها نافورة تعد من أدق وأجمل ما صنع من نوعها . ويكتنف هذه القاعة سلمان يؤديان الى الدور العلوي المشتمل ضمناً على قاعة راسية على التحشوش هي أنعم وأجل حجرات المنزل جدرانها مكسوة بالفاناشي اللزج وبسدري أبوابها دواليب دقيقة الصنع تنتهي من أعلاها بخورخات تلوحها رفوف وضمت عليها مجموعة لطيفة من الأواني الفاناشي وبالجمجرة باب مطعم بالنس والزردشان من صناعة القرن الناصر البحري . ووجهها القبلي من الحطب الحارط الجليل

(١) راجع كتاب « في مصر الإسلامية » الذي طبعه انتشار سنة ١٩٣٧ - مقال الأستاذ محمود أحمد باشا عن تاريخ السارة الإسلامية بمصر

قصر محمد علي باشا بسرا

وفي عام (١٢٢٣هـ - ١٨٠٨م) أمر المنصور له محمد علي باشا بإنشاء قصر خلوي في وسط بستان كبير في سرا، وقد بقي إلى اليوم، ويعرفه بكثك التسمية. وهو بناء مستطيل مسطوحه ١٣٥٣٠ متراً تنوسطه بركة ماء كبيرة من الرخام في وسطها مجلس مستدير على هيئة جزيرة أحيط بسياج من الرخام وحل على تماثيل من التماسيح، وكان الوصول إليه يزورق مذهب، وفي الأركان الأربعة لحافة البركة أمود رابضة تخرج المياه من أنواعمها. وفي الثلاث التي دبرعت عليها حثرت أنواع الأسماك بحركاتها وهي تسمج في الماء.

ويحيط بالبركة عدد من الرخام تحبل السقف الحافل بالنقوش وبين هذه العدد سياج من الرخام المزخرف يحمل اصصاً رخامية بها زهور.

وفي النواصي الأربع حجرات كبيرة أحدها الشرقية القبلة المعروفة «بصالة الخوز» فرشت أرضياتها بالخشب الحديز القيم وكسيت جدرانها بوزرة منه بها زخارف دقيقة وطلو الوزرة طراز مزخرف ثم السقف الحافل بكثير من النقوش تنوسطه نيرة كبيرة كوت زخارفها من طيور ناشرة أجنحتها. وقد بقي في هذه الحجرة بعض أنماط المنسجم مع طرزها. والحجرة الثانية في الركن الشرقي البحري وسقفها منقوش نقشاً عربياً، وقد كتب في وسطه (محمد علي باشا - إبراهيم باشا) وكتب حولها (طوسون باشا - اسماعيل باشا - عبد الحليم بك - حسين بك - سيد باشا) والحجرة الغربية البحرية خاصة بالبلاد تنوسطها طاولة كبيرة كفتت بزخارف مذهبة.

الخمسة

وما زال في القاهرة عدد كبير من بقايا البيوت الأثرية ولا سيما ما كان يطل على الخليج قبل ردمه منذ نصف وأربعين عاماً. وقد أوردتها المهندس الأثري الميوا ادمون يوتي في كتابه النفيس «نصور وبيوت القاهرة في العصر الاسلامي» الذي طبعه عام ١٩٣٣. وفي هذا الكتاب استطاع المؤلف أن يصف حوالي ثلاثاً وستين دوراً موزعة بين أحياء القاهرة القديمة: القاهرة البحرية التي تشتمل اليوم على حي الحسينية. ومن هذه الدور بيت البكري بالحرقش وهو من طراز تركي شيد في عصر الوالي عباس الأول (١٨٤٨). وبيت السلحدار. والقاهرة المركزية (الدرب الأحمر) والقاهرة القبلة (حي الخليفة والسيدة زينب) - وحي القلعة. وعصر القديمة - والقرافة الشرقية... الخ.

ومن حسن حظ محبي الآثار الإسلامية أن تكون هذه البيوت الجميلة موضع رعاية إدارة حفظ الآثار المصرية، وهي محط عطفها وتقديرها.

كيف يصل الماء

الى رؤوس الاشجار الشكار



تجارب جديدة بجذور مفصولة عن نباتها

تناول جذور النبات غذاءها من مصادر مختلفة . فن التراب تناول الماء والأملاح ، ومن ورق النبات السكر وغيره . فإذا فصلت جذراً عن نباته بقي في وسطه إن تناول الماء والأملاح من التراب ، ولكنه يفدو طاجراً عن أخذ السكر من الورق . فإذا غذيت الجذر بأنواع الغذاء التي كان يتناولها من الورق والتراب مضى الجذر في نموه ، على نحو ما فعل الدكتور كارل بمتل القلب من فرخ السجاج . وقد عني الدكتور فيليب هوايت أحد علماء معهد روكفلر بهذا النوع من البحث التالي مدى العمر السنوات الأخيرة نخرج منه بمقتضى شتى طريقة .

كان علماء النبات يعرفون شتى الأملاح التي يحتاج اليها النبات عندما بدأ هوايت بحته . وكانوا يعرفون كذلك ان في نسيج النبات سكرأ ، إما سكر قصير وإما جلوكوزاً . إلا ان غير واحد من الباحثين جرب صنع سائل مغذٍ لجذور النبات بإذابة الأملاح والسكر جميعاً في ذلك السائل فأبى الجذور ان تنمو فيه ، وإذن فالجذور تناول من الورق شيئاً أو أشياء غير السكر على أضافه ، فقال بعضهم إنها « أنوار » النبات . ولكنهم كانوا يقولون هذا جزراً لا بناء على تجربة وتحقق ، ولم يعرف الجواب إلا بعد بحث طويل وتجريب دقيق .

بدأ الدكتور روبنز Robbins الأميركي تجربته بإضافة قليل من الحميرة الى السائل المندي المستعمل في تغذية جذور محفوظة في أنابيب الاختبار . والحميرة من المواد التي تحتوي على بغير من كل مادة مغذية . وحوالي ذلك الوقت (سنة ١٩٢٢) أضاف الدكتور كوت Kotte الألماني الى السائل المندي قليلاً من خلاصة لحم البقر ، فكان من أثر زيادة هاتين مادتين في الحالين ان طال عمر الجذور قليلاً ولكنها كانت في الحالين تتهجر عن المضي في التمهيد بعد ذلك . وأقبل الدكتور هوايت على البحث نفسه في سنة ١٩٢٩ ومضى يبدل ويبدل في عناصر السائل المندي مضيئاً اليه وحاذفاً منه ، قليلاً من الفوسفات أو الحديد أو غيرها . ولكنه مع ذلك دام على استعمال حميرة الدكتور روبنز الى ان وفق الى مزيج تيش فيه الجذور وتنمو . وكان قد انقضى عليها خمس سنوات وهي نامية في أنابيب اختبار عندما كتب هذا الكلام من عهد غير بعيد ، ومن أغرب ما رواه أن بعضها زاد طولها يومين في يوم واحد .

وبركيب سائله المنقذي ليس ثابتاً لا يصيبه التغير ، فالحجرة فيه لا تزال على جزء من عشرة آلاف جزء من الماء ، وقد يضيف اليه قليلاً من خلاصة لحم البقر أو بغيره من « قوين » الدم ، أو اليرقان . ولكن الحجرة أفضل مصدر لكل ما تحتاج اليه الخبيرة عدا أملاح السكر والملح . وما استوقف نظر الدكتور هو ايت ان الجذور انفصولة عن نباتها تبدو كأنها تحتاج الى نفس عناصر الطعام التي تحتاج اليها نحن . إلا أن هذا الخطر لم ينعش عن البحث بحثاً دقيقاً غرضه معرفة عناصر الطعام أو الحياة التي تستمدّها الجذور من الخبيرة . وهذا البحث استغرق ثلاث سنوات في مختبر الكيمياء الحيوية . فوجد ما أبعد خاطره المتقدم الذكر أي وجد أدلة على شدة الشبه بين ما يحتاج اليه النبات وما يحتاج اليه نحن من عناصر الغذاء . ذلك بان البحث مدى ثلاث سنوات في الخبيرة أسفر عن أنها تمدّ الجذور بثلاث طوائف من عناصر الغذاء ، أولاً — الاحماض الامينية وهي التي لا نستطيع تناولها في اللحم المشوي مثلاً . ثانياً — فيتامين B الذي نصيبه في النبات الاخضر وغيره . ثالثاً — اليود الذي نتناوله في الملح الذي أدخل في تركيبة قليل من اليود أو من هواء البحر أو ما شابه . فذاً غذيت جذور الطماطم بانفصولة عن نبات الطماطم والمحفوظة في أنابيب الاختبار ، بالسكر والبروتين والفيتامين والأملاح اللازمة تمت كما لو أدخلت في سائلها المنقذي مقداراً من الخبيرة . وإذا كنا في حاجة إلى دليل إضافي على ان أوراق النبات تتركب البروتين والفيتامين فهذه التجربة بالجذور وتحليل الخبيرة هي هذا الدليل .

ونمو الجذور في أنابيب الاختبار يختلف عن نمو قطعة من عضل قلب الفرخ (تجربة الدكتور كارل) بفضل قلب الفرخ ينمو منتشراً في السائل المنقذي لا شكك له ولا فوأم . فلا يتحول فلماً سويلاً . ولكن قطع الجذور تنمو جذوراً سوية فيها جميع مغذيات الجذور ومنها الحويط أو العروق المتدة فيها من تحت الى فوق ، وهي الأداة التي تمتد عليها الجذور السوية في نقل الاملاح والماء الى جذع الشجر وإلى الاغصان والورق .

وأراد الدكتور هو ايت ان يعلم سبب نمو هذه الحويط أو العروق في الجذور التي في أنابيب الاختبار . ولا يخفى إن من أقدم المسائل التي حيرت ألباب العلماء مسألة ارتفاع الماء من جذور الأشجار الى ذرى الأغصان . قلالة بحسب ما يملكه العلم والاختبار علينا لا يرتفع إلا بتأثير الضغط أو الامتصاص . فالقوة التي ترفع من الجذور الى ذروة شجرة علوها مائة قدم أو مائتان أو ثلاثمائة قدم . هذه مسألة في علم النبات لم يحجب العلماء عنها جواباً شافياً .

ولكن من نحو قرنين من الزمان كانت في انكلترا فميس طيلم يدعى اسطيفان هابلز Stephen Hales وهو اول من قلص ضغط الدم في الحيوان ثم عكف على دراسة النبات فتوصل الى القول بأن في النبات ضغطاً كذلك « هو ضغط عصير النبات » Sap Pressure وان الجذور تقل فعل المضخات فتدفع العصير في عروق النبات داخل الجذع والاغصان ، وبهذا

الأسلوب يرتفع الماء الذي تمتصه الجذور من الأرض إلى درى الأشجار الكبار
وإن رأيت مقبلاً معنى قرن وربع قرن من الزمان . ولكن قريباً من الباحثين لم يفسح
به ذاهباً إلى أنه لا يمكن أن تستطیع الجذور توليد ضغط يستطيع أن يدفع الماء في الشجر أكثر من
خمين قدم . واعترض غيرهم اعتراضات أخرى عليه فصرف العلماء عنه من نحو خمس وسبعين سنة
بغير أن يفتقدوا رأياً مقبلاً آخر لتفسير ارتفاع الماء في جذور الشجر وجذوعه إلى أغصانه وورقه
ولكن الدكتور هوايت قال في ذات نفسه عند ما رأى الحبوط أو العروق في الجذور
التي في أنابيب الاختبار : — حينها تكون المضخات يمكن أن نجد أنابيب . وحينها تكون
الأنابيب يمكن وجود المضخات . فلما تبين أن هذه العروق هي في منزلة الأنابيب قال في ذات
نفسه كذلك : — لعل القيس هائل مصيب في ما ذهب إليه . وامل هذه الجذور تعمل مثل
المضخات وما هذه العروق إلا الأنابيب التي ينقل فيها الماء بفضل الضغط المتولد في المضخات
ومن ثم صنع الدكتور هوايت جهازاً لقياس هذا الضغط ، فوضع أنابيب من الزجاج على
الطرف الأعلى لعروق الجذور فحالت حتى رأى الأنابيب تدفق ماء من طرفها الأعلى . أي
أن الماء المرتفع في عروق الجذور أو أنابيبها بفضل الضغط الحيوي الذي تولده الجذور دخل
أنابيب الزجاج وارتفع فيها حتى قاض من طرفها الأعلى

كانت أنابيب الزجاج الأولى التي استعملها الدكتور هوايت لا تزيد على بضعة بوصات
طولاً ففقد في تجربته وهو يزيد الأنابيب المشتملة طولاً رويداً رويداً حتى بلغ ارتفاعها
سبع أقدام ومع ذلك مضى الماء من عروق الجذور يرتفع فيها ثم يفيض من طرفها الأعلى . ثم
بحول من زيادة طول الأنابيب إلى استعمال الزئبق لقياس مقدار الضغط المتولد في الجذور على
نحو ما هو مستعمل في « البارومتر » البسيط . ولكنه وجد أن الزئبق لا يكفي لذلك لأن الضغط
عليه بلغ مبلغاً عظيماً يساوي رفع الماء في أنبوب إلى مستوى ثمانين قدماً . فعدل عنه إلى الهواء
المضغوط . فلما بلغ الضغط على عروق الجذور ما يعادل تسعين رطلاً (٩٠ pound) على البوصة
المربعة وجد الدكتور هوايت أن هذا الضغط لا يؤثر في خفض نقل الجذور الدافع بالماء إلى عروق
فكان القوة التي تولدها الجذور لدفع الماء أكبر من ضغط ٩٠ رطلاً على بوصة مربعة . وهذه
القوة الضاغطة أو الدافعة تمكن لرفع الماء إلى علو ٢٠٠ قدم . وفي هذا عود إلى رأي هايلز .
ما هو الحد الأعلى لهذه القوة ؟ عندما كتب الدكتور هوايت بحثه في هذا الموضوع من نحو سبعين
كان لا يعلم ، لأن جهاز الهواء المضغوط الذي صنعه لقياس هذا الضغط في الجذور كان لا يصلح
لقياس ضغط يفوق « ٩٠ رطلاً على البوصة المربعة » . وقد اعترف في آخر بحثه بأنه ما فتىء
تاكيداً على صنع جهاز آخر يصلح لهذا الغرض

المهندس المساح المصري

في عهد عصر الفروم والحروب

للمهندس حسن محمد

قد يكون من الرقاد ونحن في هذا المقام حيث نتحدث عن الهندسة وشؤونها ان لا نفل ما كان للمهندس المساح المصري من أثر في عالم المساحة فلقد أجاد وأثر وكان له فضل سبق في نواح شتى ما قلنا موضع المفاضلة والتقدير . وكما تنطق الأهرام بما تنطق فقد أثبت المؤرخ اليوناني «هيرودوت» ان ملك مصر «سيزوستريس» قسم أراضي القطر المصري تقسيمات منظمة وتوالت توزيعها على الرعية، كل نصيب نظير حياة الأموال السنوية المستحقة عليها. ولقد كان هذا التقسيم بطبيعة الأمر موكولا إلى المهندس المساح المصري الذي سبق غيره في استخراج مساحة الأشكال الهندسية. وقد ثبت من ورقة البردي المسماة Rhind Mathematical Papyrus طريقة عمل مساحة المثلث والأشكال الرباعية وهي بمنها الطريقة التي يستعملها مساحو المديريات الحاليون الى وقتنا هذا . وهذه الطريقة مؤسسة على القانون الآتي :-

س = $\left(\frac{1}{2} + \frac{1}{2} \right) \left(\frac{1}{2} + \frac{1}{2} \right)$ أي ان مساحة الشكل الرباعي — اي المثلث المقطوع حسب اصطلاح المهندس المساح المصري الاول تساوي حاصل ضرب نصف مجموع كل ضامين متاظرين في بعضهما ومساحة المثلث مفروض فيها أن طول الضلع الرابع يساوي صفراً
وقد ورد في ورقة البردي هذه جملة مسائل لسل مسطحات المثلث تذكر منها على سبيل الحكمة هنا مثلاً عن ورقة البردي السالفة

١ — مثل ارتفاعه ١٠ خت (الخت = ١٠٠ ذراع قديم والذراع = ٥٢٣ متر)
وقاعدته طولها ٤ خت فما هي مساحته ؟

الحل = نأخذ نصف الأربعة أي $\frac{1}{2}$ = ٧ ونضربها في ١٠ بحسب طريقة المساح = ٢٠

خت مربع وبالذراع

١ — ٤٠٠ ذراع ١٠٠٠ ذراع

$\frac{1}{2}$ ٢٠٠ ذراع

المساحة تساوي ٢٠٠ في ١٠٠٠ = ٢٠٠٠٠٠ ذراع مربع

٢ — مثلث ناقص أي مقطوع الذنب (شكل منحرف) ارتفاعه ٢٠ خت وطول قاعدته

٦ خت وطول القطع ٤ خت فاهي مساحته ٢

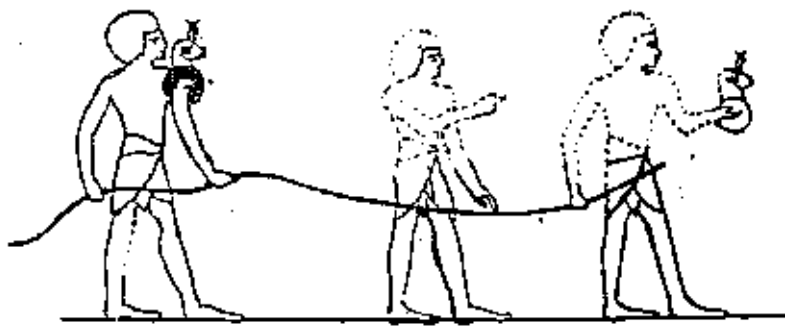
هنا نصف ٦ زائد ٤ = ١٠ ÷ ٢ = ٥ ولا استخراج مساحة المستطيل بساكني لسرب

٢٠ في ٥ = ١٠٠ خت مربع والعمل هكذا حسب طريقته

١	١٠٠٠ ذراع	١	٢٠٠٠ ذراع
٢	٥٠٠ ذراع	٢	٤٠٠٠ ذراع
٣		٣	٢٠٠٠ ذراع

٥٠٠ في ٢٠٠٠ = ١٠٠٠٠٠٠ ذراع مربع

ويلاحظ ان المساح المصري الاول كان يقسم الشكل الى مثلثات لإمّا قامة الزاوية وإمّا متساوية الساقين ، والشكل الرباعي كان إمّا مربعاً وإمّا مستطيلاً وإمّا شبه منحرف وإمّا شبه مثلثاً مقطوع الذيل ، وكان الذراع وحدة القياس وقد اكدت حيث تبين من تحقيق السلامة جريفت أن طوله يساوي ٢٣٥ متر ، وهذا يتفق مع طول الذراع النبطية تقريباً . واستعمل في قياس الكويت وهو الذراع . وكان إمامن الحطب وإمامن الحجر ومقبة الى سعة أقسام ، وكان قسمة الاخير أو القسمان الاخيران كل منها مقبة الى اربعة قسام متساوية كما يتر متعنه بلامه خاصة وكان يستعمل في قياس اطوال وعروض وانفاق المباني واستعمل في قياس الاراضي الحث وهو جبل طوله ١٠٠ ذراع وسمي بالجبل الملكي



طريقة مقاسر أبعاد القبطان بالجبل الملكي
صورة مأخوذة من مقبرة (منتخب مدينة طيب .

شكل نمرة ٢ بين طريقة القياس بالجبل المذكور

ثم استعمل النخبة لقياس الاطوال واعتبر القدان وحدة المساحة النبطية

ولقد توارث المساحون المصريون المتأخرون هذه الطريقة وظلوا الى الآن يستعملونها

وان كانوا لم يراعوا في تقسيمهم المناطق المراد مسحها الى أشكال منتظمة كما كان يعمل للمهندسين المساح المصري الأول ، الأمر الذي ترتب عليه وجود فرق بين المساحة الهندسية الصحيحة

والمساحة القديمة بتفاوت بين ٣ و ٥ ٪ والزيادة أو النقصان تبعاً لدقة المساح
ويصح مما تقدم أن مساح عصر القديم أوجد مساحة الأشكال الرباعية والثلاثية وأوجد
وحدة لقياس الطولية وهو الذراع، وهو البادى، في إيجاد آلة القياس وهي الحبل الذي طوله
يساوي خت = ١٠٠ ذراع كما أوجد وحدة للمساحة النبطية وهو السات ويساوي ١٠٠٠٠ ذراع
مربع والذين خلفوه استعملوا القصة في قياس الأطوال واعتبروا القدان وحدة المساحة النبطية.
وقد قسم الوحدة البطولية أو المساحة إلى ٢٤ قساً وسُمي كل قسم فيراطاً، وقسم القيراط إلى أجزاء
ورمن لكل جزء برمن مخصوص. ويتداول استعمالها الآن وهي مشهورة بين المساحين بالكسور
الفيراطية بالنسبة للفيراط وبصورة القدان لكسور القدان. وهذه الرموز هي جزء من عملية
الاحتزال المستعملة الآن. وإلى القارئ شكل هذه الرموز وما تدل عليه

جدول يبين رموز كسور القيراط وقسمتها

سهم	الرمز	اسم الرمز	سهم	الرمز	اسم الرمز
١	هـ	والث	١٦	حـ	حبشان
٨	جـ	حبكة	٢٠	لـ	نصف فيراط ووجه
١٢	لم	نصف فيراط	٢٤	قـ	فيراط واحد

جدول يبين رموز كسور القدان وقسمتها

فيراط	الرمز	اسم الرمز	فيراط	الرمز	اسم الرمز
١	قـ	فيراط	١٢	دـ	ربع وسط وثلث وثلث
١ ١/٢	سـ	فيراط ونصف فيراط	١٤	عـ	ثلث وثلث وثلث
٢ ١/٢	سـ	فيراط وثلث فيراط	١٥	سـ	نصف وثلث
٣	سـ	فيراط الخي	١٦	دـ	ثلث وثلث
٣ ١/٢	رـ	ثلث وثلث	١٧	عـ	ثلث وثلث وثلث
٤	سـ	سدر فيراط	١٨	سـ	نصف وثلث وثلث
٥	سـ	خمسة فيراط	١٩	دـ	ثلث وثلث وثلث
٦	سـ	سبع فيراط	٢٠	سـ	نصف وثلث وثلث
٧	سـ	سبعة وثلث فيراط	٢١	سـ	نصف وثلث وثلث
٨	سـ	ثلاثة فيراط	٢٢	سـ	ثلث وثلث وثلث
٩	رـ	ربع وثلث	٢٣	رـ	نصف وثلث وثلث
١٠	سـ	ربع وسدر	٢٤	قـ	فيراط واحد
١١	سـ	ثلث وثلث			
١٢	سـ	نصف فيراط			

وفي عهد من التهود سمي المساح بالأرور وهو يعادل ٢٨ آرا (الأر يساوي ١٠٠ متر مربع) ويساوي الأرور ١٨٠٠ ر^ط وهو مربع طول ضلعه ١٠٠ ذراع وعند عمل مساحة أي بلد كان يقوم بهذا العمل عدد كبير من الكتبة والمساحين وكانوا يفقدون كل تغيير بطر في سجلات الحكومة . وكان يقام عند حدود كل عقار خط من القوائم يكتب عليه في أغلب الأوقات اسم المالك الأخير وتاريخ آخر تحديد عمله . وفي كل ذلك يطلق على العقار اسم علم ، وكان هذا الاسم يتم إما على طبيعة الأرض وموقعها أو أحد الموارض الطبيعية التي تميزها مثل بحيرة الجنوب أو المرج الشرقي أو الجزيرة الخضراء أو بركة الصيادين أو غابة الصفصاف ، وهذه الأسماء تبنى علماء على مسيبتها اجالا فلا بيع ولا القصة ولا التوارث ولا تثير الأسر المالك لا يستطيع ان يصير هذه الأسماء لسياً منسياً ، وهذا يدل على ان المهندسين المساح المصري أنشأ السجلات المقارية (المسكفات) وراعى في عمله عدم وجود تناقضات بين الجيران بوضعه القوائم الحاملة لاسم المالك وتاريخ آخر تحديد ونسبة المقار أو نسبة المنطقة التي بها . ولم فصل الآن في أعمال المساحة الحديثة لهذه الدقة ولذا كثرت قضايا الحدود



وفي عهد ساكن الختان محمد علي باشا والي مصر عمل تاريخ للنظر المصري وقام به المساحون المصريون تحت ادارة المعلم غالي واتبعوا الطريقة السابقة وأسست ساحتهم على القصة التي حلت محل الذراع في عهد حكم العرب لمصر وقد كان طول القصة يختلف بين ٣٩٤٥ متر و ٣٨٥٥ متر وقد أثبت العلامة جومار أن طول القصة وقت دخول الفرسين كان ٣٨٥ متر وأن القدان كان مربعا طول ضلعه ٢٠ قصة ومساحته ٤٠٠ قصة مربعة

وطول هذه القصة يعادل $\frac{1}{4}$ من طول قاعدة الهرم الكبير ، أما طول الذراع البلدي فثقل انه $\frac{1}{4}$ من طول القاعدة المذكورة أي ٥٧٥ متر ، أما الذراع القديم فقد قرّر العلامة المذكور أن طوله يساوي ٤٦٦ ر - متر ، وقال إنه الذراع الذي كان معتبرا وحدة للمقاييس وقت إنشاء الهرم المذكور ويعادل $\frac{1}{4}$ الذراع البلدي أي ان النسبة بين الذراعين هي بينها النسبة بين ارتفاع الهرم وقاعدته ، كما قرّر أن العرب عيّنوا بالضبط طول الذراع السابق وطول القراع البلدي . أما وحدة السطوح فقد قرّر أنها كانت الارور يد عصر سبي الأول وهي عبارة عن قطعة ارض طول ضلعا ١٠٠ ذراع ومساحتها ١٠٠٠٠ ذراع مربع

وأطلق العرب على الارور اسم حريب ساحتها ١٠٠ قصة مربعة او ١٠٠٠٠ ذراع قديم مربع والقصة هنا كانت القصة الكبرى وكانت مقسمة الى ثلاثة اقسام كل قسم منها ٥



الهندس المصري المصاحح يفتش الجبل السكي (المن)

أقدام وتسمى بالخطوة المساحية وطول ضلع الارور ٣٠ خطوة ومساحته ٩٠٠ حصيرة مربعة. والخطوة المساحية كانت نصف القصة القديمة التي طولها ١٠ أقدام وكانت أصغر من ناحية التي يقاس بها القدان بقدر ريسها بمعنى أن القصة التي وجدت وقت دخول الفرنسيين عبارة عن قصة بربع قصة صغيرة.

وعما يلاحظ أن نسبة القصة الصغيرة للذراع القديم موافقة لنسبة القصة الكبيرة للذراع البلدي فان القصة الصغيرة تساوي $\frac{1}{6}$ ذراع قديم كما أن القصة الكبيرة تساوي $\frac{1}{6}$ ذراع بلدي وأذكر بهذه النسبة أن القصة تساوي ٦ أذرع هاشمية وهذا الذراع يساوي قديمين مصريين $= \frac{1}{6}$ ذراع عتيق $= ٦١٦$ متر ويساوي $\frac{1}{6}$ ذراع بلدي أي ٥٧٥ متر زائد ٣٨٣ $= ٦١٣$ متر والقصة تساوي ٦ أذرع هاشمية $= ٣٦٩٦$ متر حسب أحوال القرية وتساوي ٨ أذرع صغيرة أي ٤٦٢ في ٨ $= ٣٦٩٦$ متر $= \frac{1}{6}$ ذراع سودي $= ١٠٦٦$ متر في ٧ $= ٣٦٩٦$ متر وهذه المقادير مطابقة للأعداد ٢٤ و ٢٧.

أما الذراع المماري فيساوي ذراعاً عتيقاً زائداً قليلاً قدمياً مصرية $= ٤٦٢$ متر زائداً ٨٠٣ $= ٥٧٥$ متر $= \frac{1}{6}$ قدم مصرية $= \frac{1}{6}$ ذراع بلدي أي أن الذراع البلدي تساوي $\frac{1}{6}$ الذراع المماري.

وقد كانت القصة تساوي ٥ أذرع مصرية أي ٣٨٥ متر وقت الفرنسيين والقدان عبارة عن ٦ في ٢٠ $= ٤٠٠$ قصة مربعة $= ١٠٠$ في ١٠٠ $= ١٠٠٠٠$ ذراع مماري مربع. وطول ضلع الهرم $= ٣٠٠$ ذراع مماري فتكون القصة الكبيرة $= ٣٨٥$ متر فتكون القصة الهاشمية $= ٣٤٩$ متر أي أن الأولى أكبر من الثانية بمقدار $\frac{1}{4}$.

استلقت النظر هنا إلى أن طول القصة من أيام الفرنسيين كان متغيراً بمجوات السور المصري وقد وجد منها ما طوله ٣٦٦ متر و ٣٦٥ متر. والمتعارف بين الناس أن طولها بالذراع البلدي $\frac{1}{6}$ ذراع وكانت هي المستعملة في المساحة.

أما قصة المساحين الصغيرة وطولها ٣٦٦ متر فتساوي $\frac{1}{6}$ ذراع مقياس النيل الحفني وقد استأمن المساحون القبط عن الذراع البلدي بهذا الذراع وتبع عن هذا زيادة في الأقدنة بدون تغيير في عدد القصبات ، فالقدان مساحت بالقصة التي طولها ٥ أذرع مصرية ٤٠٠ قصة ولقد هنا لأقوال العلامة جومار حيث قرر أن مساحة قاعدة الهرم ٩ أفدنة بالضبط وطول ضلعه ١٠ ذراع كبير مماري وطول ضلع الهرم ١٥٠ قدماً فالقصة بينهما كنسبة ٩ إلى ٢٥ فالقصة أفدنة تساوي ٢٥ جريباً. وعلى هذا لو قسمنا ضلعين من اضلاع قاعدة الهرم كل واحد إلى ثلاثة أقسام وأقمنا من نقط التقسيم أربعة لتتبع ٩ مربعات كل منها يساوي قدماً ٢٥ ، ولو قسمنا كل منها إلى خمسة أقسام وأقمنا الأربعة لوجدنا ٢٥ مربعاً كل منها يساوي جريباً.

وعنى ذلك يكون الهرم مثلاً على الوحدة الزراعية التي هي أساس المساحة
أما طول النصب في عهد ساكن الجبان محمد عني باشا وإلى مصر فكان متغيراً في جميع المديرية
وتحدد بمقدار ٣٦٦ متر كما ذكر منجبين ولكن مساحة القدان تمحددت بأمر الوالي
بمقدار ٣٣٣ فصة مربعة

ذكرنا سابقاً أن مساحة القدان الأصلي كانت ٤٠٠ فصة مربعة طولها ٣٨٥ مترًا ولكن
وجد الفرنسيون سنة ١٨٠٠ بالجميع القديمة ما يثبت وجود قداين بمصر السفلى بالقرب من النيل
تحتوي على ٤٥٨٠ مترًا مربعاً أو ٣١٠ فصات وأخرى بميدان عن أفرع النيل مساحتها ٨١٤ مترًا
مربعاً أو ٥٥١ فصة مربعة، وكان القدان بدمايط ٦٩٠٥ اثار مربعة أو ٤٧٠ فصة مربعة

ومديرية المنوفية والقليوبية توجد جميع شرعية ثبت أن مسطح بعض القداين—وكسمى
بالقداين الصغرى—مساحتها ٢٠٠ فصة مربعة وبالقداين الكبير مساحته ٤٠٠ فصة مربعة
وابتداء من سنة ١٨٦١ أصبحت مساحة القدان ٨٢ ر ٤٢٠٠ متر مربع ولا يزال الأرض تؤجر
في مديرية الشرقية باعتبار القدان ٣٠٠ فصة مربعة فموايضاً للمالك عن الطرق والقرع وغيرها
التي يدفع عنها الضريبة والتي تستفيد من اطيان المؤجر

أما الأقدنة الصغيرة التي لم تزال مستعملة فقد دام استعمالها باعتبارها ١٨ أو ٢٠ أو ٢٢ قيراطاً
من ٢٤ قيراطاً أي القدان الفاواني وعند عمل مساحة القليوبية سنة ١٩٠٣ عثرت مصلحة المساحة
على أوراق رسمية ذكر فيها القدان باعتبار ٢١٥ قيراط و ٢٢ قيراط وفي الأراضي البور شمالي
بلتاس باعتبار ٢٥ و ٢٦ بل ٣٠ قيراطاً

واستمر العمل الحكومي في تعيين المسطحات بطريقة المساح المصري القديم حتى بعد صدور
أمر عالي سنة ١٨٧٩ بإنشاء مصلحة التاريخ فقد تابت هذه المصلحة المساح القديم في عملية
المسطحات واستازت عنه بعمل رسومات للحقول والبلاد

وفي عهد سمو خديو مصر عباس حلمي باشا الثاني أنشئت مصلحة المساحة حوالي سنة ١٨٩٢
وبدأت في عمل المسطحات حسب المساحة الهندسية، أما الأهالي فهم مستمرين في
عمل المسطحات على حسب قاعدة أجدادهم الأقدمين إلى الآن لأن هذه الطريقة توفر عليهم
عمل رسومات وتقسيم الأشكال التي تم في الحقل بدلاً من الكتب، وهذه العملية سريعة وتقريبية
لدرجة أنها قد تزيد أو تنقص بين ٣٪ و ٥٪ عن الحقيقة، وهذا فرق طفيف ومسوح
ينهم لسرعة السير في العملية ونهرها في نفس الحقل

أما الأعمال الهندسية الحديثة فتطلب من الوقت أكثر ولا يركن إليها الأهالي إلا في
الأراضي الخينة المقدار مثل أراضي البناء، والنتيجة التي وصلت إليها هي أن المساح المصري القديم

هو أقدم مساح في العالم وأول من سهل على الفلاح أعماله الزراعية من فصل حدود ومساحة أرض ، وأوجد له وحدة للأطوال ووحدة للمساح ، وأن طريقته هذه أسرع من الطريقة الهندسية بالشرق بينهما يظهر في تقدير الوقت الذي يحتاج إليه كل من الطريقتين والدقة التاريخية المنشأة حسب طريقة المساح القديم والموجودة بين أيدي أهالي مصر الوسطى سهل على الفلاحين عملية فصل الحدود لاشتمالها على إبعاد اضلاع الحقول بالنقطة أما الخرائط المساحية فصبغة التطبيق بالنسبة له وقد يكون الخطأ في تعيين البعد سبباً في جنابة تقع بين المتحاسبين

وما أتت المساحة الحديثة الآن من دق جديد في فواصل الحدود نضى على مشكلات كثيرة وحذا لو كان وضعها إجاريًا بعد أن تتداخل بصفة رسمية في فصل الحد المختلف عليه نخرج من هذا البحث الى نتيجة نشرف المهندس المساح المصري فقد أوجد طريقة هندسية سهلة للغاية لقياس الأطوال والمساحات فبدأ بإيجاد وحدة للقياس وهي الذراع ومضاعفها وهو الجبل الفلكي وطوله ١٠٠ ذراع ثم النقطة التي تحددها بطولها بمقدار ٣٠٥٥ متر بأمر صدر في سنة ١٨٦١ وأوجد وحدة للمساحة القبطية مسطحها ١٨ س ١٥ ط وهو السات واتصى الى القدان الذي قدرت مقادير مسطحه بالنقاصات المربعة واتصى بمجمله بصفة رسمية : —

$$\frac{1}{2} \times 83 = 41.5 \text{ متر مربع بأمر صادر سنة ١٨٦١}$$

وأوجد الكسور للمساحة بالكسور القبطية وهي أجزاء القيراط ومضاعفاته برموز مختزلة لا تزال مستعملة الى اليوم في مصر وانتقلت الى الأقطار الشرقية المجاورة . وهذه طريقة لم يسبقه اليها أحد من المهندسين

هذه صفحة المساح المصري القديم وهي كما تبدو خالدة الأثر وتلك طريقته وهي بلا شك تطبق بما كان له من فضل على الأطوال والمساحات ما زال يفيض على مختلف الأجيال الى وقتنا هذا فقل ان نرى وجل القرية يسد الى غير طريقته لما يكتشفها من السهولة والسرعة وعدم الحاجة الى أعداد الأيدي السائلة أو استخدام الآلات المساحية الحديثة فضلاً عن الوصول الى نتيجة مباشرة دون الحاجة الى الرجوع الى المسائل الحسابية المعقدة لاسيما وأن الفارق بين استخدام هذه الطريقة وانطرق المساحية المستحدثة لا يكاد يجاوز نطاق المسموح سواء بالزيادة أو النقصان ويستخلص من ذلك ان طريقة المساح المصري هي من حيث النظر أسرع ومن حيث العمل أيسر ، ولا أدل على ذلك من أنها لا زالت صاحبة الخطوة في القرى يستخدمها مساحو المديرية ورجال القرية في كل ما يتصل بأعمالهم المعروفة وتقسيماتهم المساحية بحيث اضطرت مصلحة المساحة الى مايرتهم بعض الشيء فسجلت على جوانب لوحات المساحة مفايير بالوحدات القديمة (النقطة) رغم استعمالها الوحدات المترية في جميع أعمالها المصلحية

معجزات الزجاج

العصري وما برحى له من النافع في الحرب والسلام

(١) لمرصده بنرى

ثبت من التجارب التي جربت في انكفرا «نفلأعن جريدة المهندسين المعارين الانكليزية» ان اوسائن المستطعة لوقاية النوافذ من أخطار الاقبحاء، تحصر في أربع شط أساسية أسطها تركيب حاسن داخلي من شبكة سلكية مقرونة بمواد تقوم مقام الزجاج أو بنوع جديد من الزجاج يكون من شأنه وقاية السكان من التغيرات الجوية . والثانية احلال الزجاج المقوي بالنسك بمح الزجاج الهادي . أما في نوافذ الحوائط فتنبع هذه الطريقة مع تخشب جزء من المنبأحة المنقولة بالواج الزجاج . والطريقة الثالثة ، تركيب ضلف للنوافذ يستطاع اغلقتها في أثناء الخطر وعند ما ينجم الظلام . والطريقة الرابعة استعمال الزجاج المزوج بالأسمنت *glass cement* وهو ذو مقاومة شديدة جداً لتأثير الاقبحاء وخطاب القنابل والأقاصير المتتارة وتوقع خبراته المبني في العالم انه في خلال السنين العشر الآتية ، ستعبر لندن نظيفة دائماً ودات يورث يتخلها الضوء ، خالية من الأركان الظلماء ، وليست في حاجة الى تزيتها يورق المحيطان . إذ يباح للمرء السكنى في دار زجاجية حيث يمكنه ان يقذف منها ما شاء من أحجار دون الخوف من اتمام المقذوفة عليه . فيظل المثل المشهور « أن كان بيتك من زجاج فلا تقذف الناس بالحجارة » لأن الزجاج الحديث الاختراع لم يعد قصصاً دائماً كما كان القديم في بدء اختراعه بل ليناً ليونة مذهشة وقد أخذ استعماله في المباني وغيرها من ميادين الأعمال يزداد على الدوام ولذلك لم يبق (البيت الزجاجي) من العبارات الاستعارية أو المجازية في الحديث . وحينئذ يصبح الاستعارة (البيت الزجاجي) (ناطحات السحاب) ذات الواجحات الزجاجية وذلك لتمام سوقها ، واسكن المادة الزجاجية الواجحة في الحائط الخارجي التي تولد نتائج لونية ملائمة للذوق المصري ، وهي المادة التي تسهل تنظيف المبني بالماء والصابون ، لا بد أن تزايد منافها بنمو العمران المصري بحيث يضطر أبواب المغارات الثيفة إما الى جعلها ذات شكل جذاب وإما الى تزيينها تزييناً للضرائب التي يدفعونها لأجلها

وأحدث طريق الانتفاع بالزجاج في ميدان المباني ، استعمال أنواع الأسمنت ذات الوجوه

(١) انصرد بذلك الزجاج المنصوع من عجينة صخ الاكريل «راجع مقتطف يوليو ١٩٥٠» ص ١٦٦

الزجاجية التي تحل الانتقال وذلك في بناء الحيطان الخارجية، وتستصبح الحيطان مسما من هذه التصوعات الجديدة إذا كست على وحدها في المباني الصغيرة ثم في المباني الشاهقة ، بدعم بدعامة بنائية ونفس الآن قوالب من الزجاج ، فيها منشورات مسبوكة في سطوحها الداخلية لأجل التحكم في توجيه الضوء توجيهاً محدوداً . وقمة سلسلة من زجاج الزخارف المنعم تقوم كذلك بتوزيع الضوء وإتقانه وتوجيهه . ثم الزجاج المحشو sandwich glass وهو نوع آخر من الزجاج العصري ، يسمح بدخول الضوء الموزع فقط . ويؤلف من لوح من الزجاج العصري بمثابة حشرة تمتع مرور أشعة الشمس مروراً مباشراً دون أحداث نقص يحرس في توصيل الضوء

والزجاج العصري fibre glass كذلك خاصة عزل الحرارة والصوت بعض العزل . وعلى حين يخدم الزجاج المسطح ، صناعة البناء خدمة دائمة ، فإن التحسينات الجديدة في صناعته آخذة في توسيع مجال منافعه . ومنها الزجاج المقسى أو المقسى tempered glass وهو الذي يحسنى (وهو عجيبة) إلى درجة عالية من الحرارة ثم تبرده سطوحه الخارجية تبريداً عاجلاً بمصاب الهواء المضغوط . وتبريد الصبح تبريداً أسرع كثيراً منه في الباطن يحدث تمدداً ، يزيد قوة الزجاج أربعة أضعاف فيجعله يكاد يلق قوة قطاع من الحديد المصهور (حديد الزهر)

وقد أصفرت التجارب التي جريت في ألواح الزجاج المقسى أو المقسى ، عن احتماله لتأثير الحرارة القصوى للرصاص المصهور ، إذا صب على لوح منه موضوع في الثلج فتباح حثبته إلى زاوية درجة عشرين دون كسره . ثم أنه قاوم الصدمات الشديدة واحتل الانتكاس الباطنة . وإذا انكسر ملاماً فلا يتشظى بل يتحطم قطعاً صغيرة مثل الملح الصخري . وبما أنه لا يستطيع قطعه ولا تقبضه بعد تقسيته ، تصنع الواحه بحسب المقاس المطلوب

وقد فتحت القوة الفائقة للألواح الزجاج المقسى أسواقاً جديدة له . فاستمر بعض مقنني المباني في انكسار الصنع قوائم (براقق) درابزون السلام حيث يحل محل المدن المصهور أو المطرق . وتصنع منه سبورات للكتابة بالطباشير في المدارس وقاعات المحاضرات ، ملونة بالألوان العاجية والخضراء والسوداء تمتاز على السبورات الخشبية بكونها أقل أجهداً للبصر وأطول بقاء وأسهل تنظيفاً وعموماً للكتابة . ويحل الزجاج المقسى أيضاً محل الزجاج الآخر في المواضع التي تتطلب احتمال الضغط العظيم . وأهم التحسينات التي استحدثت في الزجاج المسطح هي الزجاج الجديد الخاص بالنبارات ، الفائق الأمن المقرون بالطبقات الداخلية ، المصنوعة من العجائن الكيميائية الجديدة ووسائل الترابط . أما فوائد الزجاج المسطح في الزخرفة والزينة الداخليين فاتها تضاعف بكل سرعة بحيث يتعدى التفريق بين الجديد منها والشيء الذي ثبتت منافعه

وغني عن البيان أن المرابا قديمة الاختراع ولكن المرأة التي تصنع من زجاج أصفر ذي ظهر من النضة لحديثة الطراز ، وتولد انكساراً ذهبياً للضوء ، بروق النظر . أما الحشوات

الزجاجة المستعملة في الخزاف الداخلية فقد أصبحت واسعة الانتشار. بيد أن الزجاج المحشو وأما في بعض المؤلفات من نوعين بينهما طبقة من الزجاج الشمري يؤلف طريقة جديدة في هذا الميدان إذ يظهر بظهور النصف حيناً يظل استعمال الأثوان، وبذلك تتألف مختلفة بالمصايح الخلفية أو بالزجاج المنقوش أو بها كهيها. ويستعمل الزجاج المحشو كذلك كحاجز ربيع يقوم بشد التور وضيقه وبخلاف قدر الصوت والحرارة. وربما كان أغرب أنواع الزجاج وأقلها شهرة بين الناس، الزجاج الشمري أو الزجاج المنزول وهو الذي يصنع على شكل حلل الصوف، أو خطوط الحرير، التي يمتلئ نسجها منسوجات مختلفة. ويحيزل توتاً لتغير اثنين حيناً يسمون اسم الزجاج الشمري، أنه من الميسور الارتقاء به، ولكن يحتمل أنه لم يبدل جهودات ما في إدخاله ميدان للمسوحات الصالحة للنسج لأن النسج الزجاجي قليل النفع، إذا تيسر الانتفاع به غير أنه قد يقع بعض النفع في البيوت إذ تمنع منه المظال البنية «التندبات» وسيضع من هذا النسج عما قريب نوع من مشعات السفرة يفوق في مظهره أنحر أنواع الدمقس (وهو النسج الحريري المشجر) فلا تتلف السيارة النشطة إذا وقعت عليه أو السائل المظلي إذا أفرق فوقه. ويستعمل الصوف الزجاجي glass wool المنسوج من الزجاج الشمري، ليزول الحرارة في المواقد وصهاريج المياه الساخنة والمقايح وقاعات مخازن التبريد وحيطان البيوت، ولأجل عزل الصوت في الحيطان والحواجز. ولحملة وزنه، يؤتمر على غيره من الوسائل للاستعمال، في البواخر والطائرات ومركبات السكك الحديدية وغيرها من الأماكن حيث يكون الانقصاد في الثقل اقتصاداً للبال والزجاج الشمري يقاوم التآكل الذي تحدثه الحوامض، فينفع في المرشحات الكيميائية إذ يوضع لوح من لسيجه بين لوحين بطارية الحزن فيجعل الحامض يدور في البطارية ولكنه يبطئ ذوبان ذببت اللوحين، فيطول عمر البطارية.

وقد ارتقت صناعة الأواني الزجاجية الجديدة ارتقاء متواصلاً، بمجادة لتحسين صناعة الزجاج البصري القمد المقاوم للحرارة إذ الزجاج الجديد البصري القمد جداً، يقاوم أشد التقلبات في درجات الحرارة بلا كسر. وأغرب ما اخترعته المختبرات العلمية في هذا الصدد أنها وضعت طبقة من الزجاج الجديد في حوض من الثلج وملطت عليه لب الأكسيجين فلم ينحطم وما من ذلك في أن الزجاج الذي من هذا الطراز والذي يحتمل مثل هذا التأثير البالغ، دون ما نذكر. لا بد أن يوسع لطاق سوق أوعية الطبخ نوسياً عظيماً كما أنه يشق طريقه في كثير من المرافق التي تتطلب الزجاج ولكنها لم تسكن من الانتفاع بالزجاج القديم لعدم مقاومته قلات درجات الحرارة المرتفعة. فلا عجب إذا استمنا صناع الزجاج يسمون العصر الحالي، عصر الزجاج، كما بدعوه صناع الفولاذ، عصر الفولاذ، وعطاء الكبياء، عصر الكبياء، ومدار ذلك جميعه على وجهة وأي كل فريق منهم، وبلغ ما يؤيد به مذهب من البراهين العلمية.

وقد أتممت أفكار مهندسي البناء حديثاً في اسكتلندا وأميركا إلى بناء البيوت وشيعة من قوالب الطوب الزجاجي المخوف وذلك لكيلا تحول نهاراً دون دخول الضوء في المجربات . ثم أنها تضيء ليلاً حينما يسري فيها التيار الكهربائي . وقد استعملت قوالب الزجاج في كثير من المباني الصرية التي تم بناؤها في وضع السنين الماضية إلا أن أحدث التحسينات التي أدخلت فيها ملء تلك القوالب الحوفاة بغاز يضيء حينما يمر به التيار الكهربائي — فشكل حجرة تبنى حيطانها على هذا النمط ، تم إضاءتها جيداً دون أحداث مواضع فيها ، باهرة بالضوء ، يحدث سداً مزججاً لا يفسد مكانها . وإذا استعمل ذلك الحائط كمحاطط خارجي ، صارت الحجرة التي من هذا النوع ، مضاءة إضاءة كافية طول النهار ، من جراء الضوء الذي يتخلل حيطانها النصف الشفافة . ولذلك المبنى منفعة أخرى ، وهي أن حائطه مادام مضيئاً بذاته فلا موجب تركيب جهاز مستقل لحل الضوء فيه . وما دام النمط الداخلي ، فيه منخفضاً كل الانخفاض ، يقوم كل قالب مقام تازل جيد جداً للحرارة

وإذا أردت زيادة الإضاءة ، دُمجت بواطن القوالب الزجاجية بمادة تضيء بتأثير الأشعة التي فوق البنفسجية التي تولد من الغازات التي يهيجها التيار الكهربائي . وإذا مست الحاجة في الحجرة ، إلى الأشعة فوق البنفسجية للتنعيم ، وما شاكله أمكن صنع القوالب من الزجاج الذي ينقل تلك الأشعة ، على أن يوضع في بواطنها قليل من الزئبق — ثم ما قلته المحلة الانكسارية العظيمة وبما أني سبق أن كتبت مقالاً ضافياً نقلاً عن المجلات الأميركية في مجربات الزجاج الحديث في مجلة الموظف التي صدرت في مارس سنة ١٩٣٦ فرأيت أن أقتطف منها البتة الآتية تماماً للقائدة : — ويصنع من الزجاج ورق لتزخرفه الحيطان بديع المنظر ، ويباع في ملفات تؤلف من خيوط رفيعة من الزجاج الملون ، مرصوفة على ظهارة من الورق ، وألوانه يتخلط بعضها ببعض فتشبه الأبرار . ولما كان ذلك الزجاج يستطاع مده خيوطاً رفيعة جداً ، أصبح الانتفاع به ميسوراً في أعمال جديدة شتى . ومنه يصنع الصوف الزجاجي وذلك من خصل تؤلف من تلك الخيوط . ويستعمل في العزل وفي استخراج الغاز من الهواء المرطب . وقد اخترعت شركة أيزر أيلينوز مرشحاً جديداً للهواء ، فاستطاع التقاط ٩٠ ٪ من الماء كما أنه التقط حبوب الفتح والبكتيريا من الهواء في أثناء مروره من ذلك المرشح . واستعمل الصوف الزجاجي في بواخر الركاب التي تمر عبر عباب المحيطات وذلك بمنأى أغشية حول أنابيب البخار ، بدلاً من المواد المازلة المتادة فشككت البواخر بإشغاله من تخفيف وسقها ٣٨٠ طناً أو ما يعادل ثقل أكثر من ٤٠٠ راكب . ويقوم مصنع كورتيج في أميركا بصنع أسنان زجاجية وكتبجات زجاجية ونفوش زجاجية للون . وغير ذلك من الأدوات الطريقة

تطور الأسرة

المصرية^(١)

لمصرية ابنه الصهر الفوسى

في الأسرة بحثاً المصلحون والفائدة والعناء والفلاسة وفيها تفرس في الأفراد الفضائل الاخلاقية والمواخف الانسانية والمبادئ الديموقراطية وبين أحضانها تنمو عناصر الشخصيات القوية التي تقوم بالانقلابات الثورية والاصلاحات الاجتماعية التي تؤثر في تقدم البشر وسير الحضارة والعمران فهي تهدلترام والتعاون ومنشأ البطرة والتشريع ومرجع العادات والتقاليد وإذا كنا لا نستطيع اصلاح الجماعات الا باصلاح الافراد فأقرب ما يكون ذلك في تناولنا وهم في الأسرة صداراً في دور التكوين

والأسرة كسكل نظام اجتماعي تخضع لنظام التطور والرقى كما يخضع الجسم الحي لنواميس الحياة ومنه نشوء والأرتقاء وفي التاريخ أصدق شاهد ولا حاجة بي الى التنبط والرجوع الى عهد الامومة يوم كانت الأسرة قاصرة على الام والاولاد، ولا الى الخطوات التي تلتها بعد انضمام الأب اليها مسوقاً عاطفة الحب والمصلحة، ولا الى تدرجها في الرقي حتى اصبحت وحدة اجتماعية تامة ويكفي ان أستعرض حال الأسرة المصرية في حقبة قصيرة من الزمن وعهد لا تزال نفس آثاره لتبجلي لنا النشوط الذي قطعه في مضمار التطور من عهد محمد علي الى الآن وتبين نواحي نهضتها ومواطن الضعف فيها ثم أبسط ما أراه لمقوماتها

كانت الأسرة المصرية الى ما قبل الاحتلال البريطاني متأثرة في الطبقتين العالية والوسطى من الامة بالطابع العثماني وحياة الحرمة على حد تمييز أهل الغرب— فكان رب الأسرة عائلاً ومبداً المطلق له الأسرة، وعلى نسائه الطاعة، وزوجات كن أو بنات أو أخوات— أما الزوجة فكانت تعيش في عزلة تامة عن العالم لا تدري من شؤونها شيئاً ولا تعرف غير بيتها وأولادها، وتزوجها صغيرة عادة وفي كثير من الاحيان وهي دون سن البلوغ، ويوفر لها من وسائل العيش وضروب المتعة المادية ما تسمح به ظروفه الخاصة. لا ترى من الرجال الا عمارها أو جماعة الاغوات ولا يفارح بينها الا لضرورة ماسة فلا تعرف طريق الاسواق ولا تخرج انزعة أو رياضة. تعيش حياة خمول

(١) محاضرة أقيمت في الجامعة المصرية بالجامعة الاميركية بالقاهرة

وكنت مريضة وزمها ويترهل في غالب الأحيان بدنها وتنفذي عمرها في تلك الأسرة الضيقة وقد ضرب عليها الاستبداد حججاً حجب عنها نور العلم وانرفان وحاضها بسياج من الحرافات والأوهام. إذا مرضت لجأت إلى وصحات الدجائز وأكثرها خزعيلات وبن عجزت حرعت إلى الدجائز والعرافات والله وحده يعرف عدد من رحن ضحية جهالة الدين كانوا يرون الموت خيراً من غار احضار الطبيب لانقاذهم في ولادة متسرة أو حية أسقمها دام دفين. حدث أن مرضت ابنة شابة لأحد أدباء ذلك العصر المشهورين فأحضرها الطبيب فلما دخل لبيادتها وجدها في سرير وقد تدلت عليه كلفة من الشاش حتى لا يرى منها شيئاً فجلس إلى جانب فراشها وجعل يسأل عما تحس به ويستدرجها حتى تأنس إليه فيكشف عليها فطلب منها أن يجلس بنفسها فأخرجت له يدها فطلب رؤية لسانها

أنتهون بإسادة ماذا فعلت ! لم تلمها الحيلة فقد مزقت الكلفة وأخرجت منها لسانها وغلبته على أمره. هذه قصة حقيقية ما زالت صاحبتها على قيد الحياة وقد سمعنا منها بنفسها وهي صورة صادقة لأغلب لسان عصرها

أما من كان يسمدهن "الحفظ ويشلن" - وقليلاً ما كن - فكان تعليمهن لا يدور القراءة والكتابة وحفظ القرآن فقد كانوا يرون كما كانت أوروبا في العصور الوسطى ترى تعليم الفت صائراً ولو أقصر على نحو الأمية وكان التعليم يتم في البيوت إذ لم تكن في مصر مدرسة واحدة للبنات في عهد محمد علي. أن ديوان المدارس قد بدأ تعليم البنات في التهوض بالمجتمع المصري أشار سنة ١٨٣٧ على محمد علي بإنشاء مدارس لمن أسوة بالبنين فإن الاقتراح لم ينفذ في عهده لأن المجتمع لم يكن يألف كما يقول ارتين باننا في كتابه تعليم البنات في المدارس واكتفى محمد علي بإنشاء مدرسة للتقالات كان كل تلميذاتها عشر جواري حبشيات من سرايه كان يصحبهن إلى المدرسة بعض الأغوات لحراستهن. أما بنات أسرته وجواربه فقد عهد بتعليمهن إليه الممر كيدر زوجة أحد المبشرين الانجليز التي أنشأت أول مدرسة بنات سنة ١٨٣٥ بتشجيع تلميذتها كبرى بنات محمد علي وزوجة محرم بك أمير الأسطول المصري ولن أزيدكم بياناً بآدراككم الحكم على تربية أبناء الجيل وحال أمهاتهم على ما رأيتم من الجيل والتأخر لتدركوا لما تمنا رست بلادنا في قيود الاستبداد كل تلك السنين الطوال وأنهم تعلمون أن الشعب لا يرتفع فوق مرتبة لسانه

ظلت الأسرة المصرية على تلك الحال من التأخر ودحاً من الزمن غير قليل ولو أن الأسرة السعيدة كانت أحسن حالاً إذ سبقت احتها المسلة في الاقبال على إرسال بناتها إلى مدارس الإرساليات التي ظهرت قبل منتصف القرن التاسع عشر بقليل فتسرب بهليمن بهيمن من

نور العلم إلى البيوت فأضاء جوانبها ووقع مشواها. ثم قامت الطوائف الشرقية غير المسلمة تفتش المدارس ففتش الأقباط في عهد البابا كيرلس الرابع أول مدرستين للنات ومن ثم سارت الأسرة المسيحية في طريق الرقي بخطوات وثيدة ولكنها ثابتة، وسفر ذلك بعض الأسر المسلمة على الاقتداء بها وإرسال بناتهم إلى مدارس الإرساليات على أن أراي العام كان يستنكر إرسال البنات إلى تلك المدارس

ولما أتى عهد اسماعيل بزغ فجر عصر جديد في تطور الأسرة ونهضة الأمة بفضل همه ذلك المصلح الكبير فقد نهض بالتعليم حتى بلغ عدد المتعلمين من الذكور في البلاد ٤/١ بعد أن كان قبل عهده ١/٩ وشجع الأوربيين على فتح المدارس للبنين والبنات حتى بلغ عددها في احصاء سنة ١٨٧٣ سبعين مدرسة. وفي نفس السنة بدأ إنشاء مدارس البنات فأسست زوجته الثالثة تنما أفت هاتم للمدرسة السيوفية بإيماز منة ودخلها نحو مائتا تلميذة لم يمض علم حتى تضاعف عددهن. وفي سنة ١٨٧٥ أسس مدرسة للمكفوفين والحرس من بين وبنات فكان أول من عمل على اختلاط الجنسين في التعليم وافتتح بضرر تعدد الزوجات فأبى أن يكون لبناته ضرائر كما أبى أن يكون لأولاده الثلاثة السكار غير زوجة واحدة فاهيك بالنظام والتجديد الذي دخل البيوت بزوجه الجوارى المتريات في قصوره من وجوه البلاد

ولما قصت الظروف المالية المعروفة بالاختلال لم يتغير الحال كثيراً وخاصة في العائلات المسلمة فتي سوادها خاضعاً لسلطان العرف والتقاليد فأقرأ من التغيير والتجديد حتى أن المرحوم قاسم لما قام في أواخر القرن التاسع عشر بصرخته المدوية وتجاوب صداها في أرجاء الشرق فمرض لمز القدر من الكتاب ورجال الدين من مصريين وغير مصريين ولم يبعد دعوته إلا أقر قليل من الخاصة أنفسهم حجته وأدركوا أثر دعوته في رقي الأسرة ونهضة الأمة لهذا لم تؤت تلك البذرة الصالحة ثمارها إلا بعد أربع قرن أو يزيد احترمت فيه فكرة تحرير المرأة وساعدت على اختارها عوامل شتى في داخل البلاد وخارجها كان أولها التقدم الاقتصادي الذي زاد في ثروة البلاد ورخائها وساعد على قيام الحضارة ونشر التلم وإرسال البنات العلمية إلى أوروبا وثانياً التقدم العلمي الذي سهل المواصلات وزاد في روابط الصلة بين الشرق والغرب وفتح الأذهان لبعد النظم والتقاليد فلم يعد لها تلك القداسة التي كانت لها في نظر أجدادنا وثالثاً حركة مباركة قامت بها المسز بنكرست زعيمة المطالبات بحق النساء في انكساراً مع أربع وستين سيدة من خريجات الجامعات ذهبن إلى البرلمان وقدمن إليه عريضة جاء فيها «لقد شئت قوسنا مظاهر اللطف وضروب العناية والتعجيز التي يبدىها رجال السياسة ويريد النساء تحقيق مطالبهن وسيتأقن البر فاما نيل المرام واما الحلام»

ولما خرجت من البرلمان شرعت تهجون في طول البلاد وعرضها فخطب في المآهد الطبية والجمعيات والالندية ووصلت الى اكسفورد حيث عقدت مع زميلاتها عدة اجتماعات قررت في ختامها عقد مؤتمر في السنة التالية ، وفي مايو سنة ١٩٠٢ قامت جمعية خريجات اكسفورد بعقد المؤتمر وضم نخبة كبيرة من أقطاب العلم وأساطين الفكر ورجال المال أذكر منهم السير اوليفر لودج العالم الطبيعي والسر رالم كروكس الكيميائي واللامة رنجن الألماني والفيلسوف هنري برغسن وأولست هيجل البيولوجي وكوخ البكتريولوجي والورد جلفن وماركوي وأديسن ومدام كوري وايشنن وبرتاند رسل وتولستوي ومكسيم غوركي وغستاف لبون وأدمون دي مولان وسارة برنار وكارنجي وفورد ومرجان ، لي كل هؤلاء الاقطاب دعوة للتؤتمرات واجتمعوا من مختلف أقطار الأرض تأييداً لتلك الحركة المباركة وخطب عشرة منهم في مركز القاعة في الهيئة الاجتماعية ومن اياما العقلية والروحية وما يمكن ان يشاد عليها من الرفعة والمجد في حياة استقلالها ووردت برقيات التأييد من ملك انجلترا ومملكة هولاندة وامبراطور ألمانيا ورئيس الولايات المتحدة وغيرهم. ولما انتهى المؤتمر دفعت قراراته الى برلمانات اوربا وأميركا وحكامها وجامعاتها فكان لها اثرها البعيد في العالم كله وخاصة بعد ان تحققت مطالبهن في كثير من الدول

وكان رابع العوامل ابطال الرق فقد كانت لتلك الحركة اثرها في تقدير حق الحرية الشخصية والتورة على انواع العبودية وما هو أن أصدر البرلمان البريطاني قانوناً حدد بمقتضاه أول أغسطس سنة ١٨٣٤ لتحرير كافة الارقاء في الممتلكات البريطانية حتى بلغ عدد المحررين سنة ١٨٤٩ في الهند الشرقية وحدها اثني عشر مليوناً وسرعان ما اقتدت دول الغرب ببريطانيا فأبطلت السويد سنة ١٨١٩ وفرنسا والديمارك سنة ١٨٤٧ وهولندا سنة ١٨٦٢ وتمتتها باقي الدول تدريجياً ثم تحولت الجهود لابطاله في الدول الاسلامية فلم يأت عام ١٨٧٧ حتى عقد استماعيل مع بريطانيا مساهدة لابطاله ومنع الاتجار به فلم يكن من المقبول بعد ان تحررت في مصر وغيرها الاماء ان ترضى بالاستعباد باقي النساء

وخامس العوامل تحرير المرأة التركية ونهضتها العظيمة بعد ان أخذ يدها بطل الاستغلال كمال أتاتورك وأزال الرأقيل من سيطتها فاطلقت الى ميادين العلم والحياة تسمى جاهدة وشاركت الرجل في بناء مجديلادها وكان لنهضتها وهي المرأة المسلحة صدى بيذا في الأمم الاسلامية خاصة وسادس العوامل البثاث العلمية وسفر الكثيرين من المصريين الى اوربا مما ساعد على اقتباس الكثير من العادات الغربية في طرائق الحياة والتفكير وبثه الأذهان الى مواطن الضف وأثار الهمم للبلل على الاصلاح فبضدها تسير الأشياء

ولقد أتبع ما أسلفناه به بدءاً من كتاب نرشد الأمين بنات والنسب الذي وضعه رفاعة
 بك الطرطوسي بعد عودته من الدراسة في أوروبا فكان أول من دعا به إلى وجوب تعليم
 البنات وسمايتهن "سهر" واختلاط الجنسين فقد جاء فيه « ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات
 والعيان ما لحسن معاشرة الأزواج فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ويجملهن بالمعارف
 أخلاقاً تشركه الرجال في الكلام والرأي فيسطن في قلوبهم ويمظن مقامهن لزوال ما فيهن
 من سخافة العقل والبطش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لرأه مثلها وليمكن المرأة عند
 الاقتضاء أن تساعد من الأشغال والأعمال ما يتشاطاه الرجال على قدر طاقتها فكل ما يبطئه
 النساء من العمل يأسرنه بأنفسهن وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإن فراغ
 أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وانتحال الأقاويل فالسل يضرن
 المرأة عما لا يليق ويقرنها من النضبة وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة
 عظيمة في حق النساء »

« وقد كان في أيام مصريات نحن كالتجوم الزاهرة وسط الظلام الخيم على أحوالهن ما أيد
 حجة الظلم بالسرور إلى تعليمها وتحريرها "ذكر ممن" فاطمة الأزهرية واليدة الظلوبة
 وتعليمهما جائزاً في الشريعة التي تلفت عنها النجوى والعروض

ثم كانت آخر العوامل قيام الثورة الوطنية المصرية سنة ١٩١٩ فتخطت آخر القيود التي
 قيدت المرأة فبرزت من خدرها واندفعت في حماسة إلى ميدان الجهاد وأصبح أمامها مجال العمل
 وتفتحت أبواب الآمل وبدأت طلائع المستقبل المنير

وهكذا ترون أن تقدم الأسرة المصرية لم يأت طفرة فقد كان لكل عوامل من تلك
 العوامل نصيبه في تبيد سبيل النهضة وتهبئة الأفكار لتطور المتغير كما كان لما يحدث في الغرب
 صدئ بيبدأ تجارب في مصر فأيقظها من سبات طال أمده وفتح عينها لاستقبال نور المروضاة
 الحرية وسرعان ما استجابت لتوازع التجديد في نظمها الاجتماعية والعلمية والسياسية وأسربت
 الخطى فقامت في فترة وجيزة ذلك الشوط البعيد في نهضتنا الحديثة وكان طبيعياً أن تال
 الأسرة نصيرها من هذا التطور الكبير وخاصة بعد ازدياد المدارس وانتشار تعليم البنات وانفراد
 الزيادة في الأقبال عليه وتدرجه في الرقي تدرجاً دفع بالأسرة إلى التقدم دفعاً سريعاً فتطورت
 العلاقة الزوجية وأصبحت تقوم بين طبقة على النقام والتعاون وبعد أن كان الزوج هو السيد
 المطلق الحاكم بأمره والزوجة في نظره متاعاً وأداة لإنتاج الأولاد أصبح اليوم رأس العائلة
 وأصبحت هي العنق التي تحركه في رفق وهواة لا يشعر معها بضخامة وصارت الزوجة شريكته
 وصديقتها لا أمّاً لأولاده بحسب تحدرت من أسر الحجاب وأيقنت أن الحجاب ما حجب عن

أخلاقها النزيهة والسوء فخرجت من عزيمتها السخيفة لتستشق نسيم الحياة الطرية حينئذ ساركت زوجها الفتح بمهاج الحياة فحضر معه الاجتماعات وتدعى إلى الحفلات وترافقه في الزيارات والخروج للرياضة والترويع عن النفس فاستفى كثير من أفاضل الأزواج بهذا الاضرامك المائلي السعيد عن ارتياد المقاهي والبارات والسهر في الأندية والصالونات ووسع هذا الاضرامك وانباها على زراعة الجرائد والمجلات أفق الحياة أمامها فصارت أكثر بصراً لأمر الحياة وزفت عن المسائب وهدت عن الحرافات وصارت تضرر بقيمتها وتعز بكرامتها وتقدير مسئوليتها نحو الأسرة والمجتمع والانسانية وكانت النتيجة الحتمية لهذا كله أن ارتفع مستوى اليوت وارتقى فيها الفنون وسادها النظام وتقدمت صحة الاولاد ونحمت تربيتهم وحاز تعليم البنات ضرورة كتعليم الاولاد وأقبل كثير من بنات كرام الأسر على ساعد العلم العاليه ينهلن من نهجها الصافي فاقصح أمامن طريق العمل واشتغلن بالتعليم والتحرير والتربص وغيره وساهمن بنصيب مشكور في الشؤون العامة فأقبلن يواسين المريض ويساعدن الفقير ويمغنن اليتيم وتعلم برهن مختلف الطوائف وما كادت تشتمل نار الحرب الفروس حتى انبالت طلبات المتلوعات لتخفيف ويلاتها ومصاها . هذا حال الأسرة المصرية الحديثة والاتجاه الذي تسير فيه اليوم . غير ان الأسر المتعلمة لا تزال قليلة اذا تبست بمجموع الأمة لاقتصار التعليم على الطبقتين العاليه والوسطى واذا كنت قصرت بمعنى الى الآن على هاتين الطبقتين فليس ذلك قنبللاً من شأن الطبقة الثالثة وهي سواد الشعب ودعامته وانما لأن التطور الذي أصاب تلك الطبقة ضئيل ضعيف الأثر

إن مهمة الباحث الذي يستعرض حال الأسرة المصرية ليتناول عيوبها بالعلاج مهمة شاقة عسيرة لا بد له منها من الأناة والروية ذلك ان الموضوع جد خطير يزيد في صعوبة تعاقبات غير قابل في سلم الرقي الاجتماعي واختلاف غير يسير في مشاكل الأسرة في كل طبقة من الطبقات وقد ترددت بأمر ابداء أيا الطبقة الدنيا وهي السائدة الغالبة أم بالطبقة العاليه وقد أعطي لها الزمام في القيادة أم بالطبقة الوسطى وهي حلقة الاتصال التي تخضع لتأمرس التأثير والتأثر ثم رأيت ان أكتفي بعرض أبرز اليبوب في المجتمع المصري وأعظما خطراً على كيان الأسر . وسأحاول ما استطعت ان ألسها في رفق ولين ، حتى لا يكون لشوكم ما يعرج عاطفتكم ويبدى فؤادكم

نفوا بنا عند تعدد الزوجات وارجموا الى الاحصاءات التي تنهى بنا الى كثرة الطلاق وما يترتب عليه من شقاء البائعات . من دواعي السرور ان أخذ الكثيرون يقلعون عن تعدد

أمر كاد في بعض الطبقات وأصبحت الحالة الاجتماعية تناهضة وتنتشر إلى
 جميع الطبقات. غير أن الأسف يلمح أشده عند ما نرى أسفاف الطبقة
 الأرستقراطية والطلاق وإساءة حق شرع للضرورات فأصبح في بد الجهة سبباً
 في هذه المآلات. نرى الواحد منهم لا يرضى أن ينقضي به الزمن دون
 زوجة ينجب من كل منها طفلاً أو أكثر فينشأوا على الحقد والصنعة بحكم
 ما يحطهم في كثير من الأحيان على الأجرام كما يدفعهم أهال الأب وعجزه
 الشديد. وكيف يمكن أن يمول أسرة كبيرة العدد في حدود دخل ضيق شديد
 في غربة في حق الوطن والانسانية أن نوافي المجتمع بحيش من الأطفال ليس
 لنعلم أن الإحصاء في العشرين سنة — من ١٩١٠ إلى ١٩٣٠ — يظهر اضطراب
 في المجتمع والحائيات التي يرتكبها الأحداث. وما هؤلاء إلا أبناء أعظم آيازم
 في عظم الأيام فانطلقوا هائمين على وجوههم في الطرقات يلتسسون الرزق بأيسر
 يدفع الحاجة في الرذائل بشلوث ويسرقون وبشئون ويخدعون ولم
 يزل السيل قاسموا مرعى الاجرام صفواً ثم شربوا فصاروا من عتاة
 في الجلاء من ذكر ما سمعته من سيدة انجليزية تشتت في بوليس الآداب عن
 بلادنا وخطرهن على الصحة والأخلاق ويكفي أن نعلم أن من أغلب
 أن الأمر جد خطير ووقاية المجتمع من تلك الشرور يتطلب من الحكومة
 مع وضع قوانين مشددة تحمي الأسرة وتمنع تعدد الزوجات إلا لضرورة
 كمرض لا يبره أو عته أو نحوه. أن الأسرة المسلحة في ميسر الحاجة إلى
 تلك القروض ويوثق الصلة بين أفرادها ويقضي على الانحلال الذي بدب فيها
 بمرق شملها بسبب سوء استعمال حق الطلاق. فالطلاق إذا كان كإلاج
 يثير من الأحيان لا يجب أن يلجأ إليه إلا بعد اليأس من كل علاج. وكما أن
 الطبيب، كذلك الطلاق يجب ألا يتم إلا أمام القاضي حفظاً لكيان
 مصلحة الأولاد.

في هذه الحالة لا تقل عن الأولى خطراً على حياة الأسرة هي انصراف الكثيرين
 إلى دور اللهو وصلات الرقص والحانات ونواصي الغار طامرة بحيش
 لهم أرباب أسر وآباء أولاد يقضون فيها السهرات الطويلة فينفقون ما لهم
 يكون أعصابهم في يسر ثم يودون إلى بيوتهم مهددين بحيش في صدورهم

تورة وحقد هي كل ما كسبه من موائد القار، تدفع ثمنها الزوجة الملكية
عودته على مضض من الألم فاذا فصحت رغب عن كل نقد أو نهته عداً عملاً
ولم يكن لم تفسوا قصة السيدات اللاتي قصدن إلى مكتتب الآد
ورفن إلى شكايتن من انصراف الأزواج إلى بيت أحد أصدقائهم في
أدعى دواعي الأسف أن هذا الداء الويل لم يقتصر ضرره على جماعة
الطبقات الفقيرة فزادهم يؤساً على يؤس يدفعهم الأمل الكاذب في زيادة
بضموا قوت عيالهم ويودوا اليهم وهم صفر الدين، ومن الجيب أن بعض
والفضيلة في زوجته ولا يتخذها لنفسه شعاراً ويحل نفسه ما يحرمه عليها
جيماً الدينية والاخلاقية تسوي بينها وإن له ما لها وعليه ما عليها . وليس
نحس وتشمر وتأنم . وأنه ليدفع الثمن غالياً عندما ينفذ صبرها فتخرج بيت
شمل العائلة . أما اذا أعوزتها الحكمة فقد يدفعها النبط إلى الانتقام فتسير
انقرار الذي انهدر إليه

ومن أكبر الخطر على الفضيلة والاخلاق في المجتمع أن يشب الشباب
تنزل منه نزلة الايمان فيعتقد أن مخالفة الفضيلة لا تشبهه ويجد من
أليس في ذلك تشجيعاً على الاستهتار والافتقار في الفساد ، أني أجدهم
والكتاب والمصلحين أن يصلوا جيماً على نحو هذا الخطأ الشائع من أذهان
سلامة المجتمع من أخطاره الكثيرة

وما يهدد كيان الأسر انصراف الشبان عن الزواج . وهو محمود اذا كان الانصراف
الشاب حتى يهيء له أسبابه ويستطيع كسب ما يبول به أسرته ويقوم برفقة
هناك طائفة تتخذ الأحجام عن الزواج مبدأ تدين به ولست أدري أي جملة
فلسفة يدعون اليها وليس فهم ابو اللاء في زعمه . إلا أنها فلسفة شاذة
الحكمة تمض على حذر الفضيلة وتقوم على القوضى وتفضي على أجل وأنبل المواضع
نعم أن في الزواج تضحية وتقيداً لشيء من الحرية ولكنه قد يحجب إلى
ذلك أن لجنة المودة والرحمة . فليسمع الشباب وليعلموا أن كل من أسس أسرة
يبدء لبنه في صرح الوطن وأحي جيلاً . ومن حرب من تحمل المسؤولية
جيلاً بأسره . وليذكروا وهم يأخذون على الفتاة مزاحمتها لهم في الأجل
تعتل الكثيرين منهم أن انصرافهم عن الزواج من أقوى الأسباب التي
نفسها لكسب عيشها وصون كرامتها

ومشكلة أخرى تواجه الأسرة المصرية وتزلزل كيائها تلك هي انخفاض مستوى حياة الملايين من الطبقات الفقيرة انخفاضاً زل بها عن مرتبة الحياة الانسانية . ويزيد الخلة نسبة كثرة النبال في تلك الطبقات كثرة أصبحت مما تواجه مشكلة اطراد الزيادة في عدد السكان في وقت زاد فيه الكفاف في سبل العيش واشتد ضغط الحياة حتى أصبح الرجل في كثير من بلاد الريف يعمل طول يومه بقرشين والمرأة بأقل من ذلك

بالله . . . كيف يمكن وصف حال هذه الاسر التي لا تجد الكفاف الا بشق النفس ان القلب ليدوب حسرة وبغض ألماً ويكاد يسجزي عن الكلام فلا ترك الحضر انكم تصور الحالة الصحية والاجتماعية تلك الاسر فكلكم يعرف يؤس الفلاح وما يحيط به من شقاء وما يفتك به من امراض . وتصوروا معها حال اسر المتعلمين الذين سدت في وجههم ابواب الرزق وضاعت بهم سبل العيش . ان مشكلة ازدياد السكان مشكلة عويصة لا بدّ لملاحها من هم وجهود جارية وعندى ان تبدأ فوراً بتجديد الزوجات ونشر الطاية لتحديد النسل اذ ما من شك في أن كثرة الاناج في الطبقات الفقيرة والطبقات التي تليها هي علة تلك الزيادة . وعليها ان تعمل على نشر تعليم الصناعات المنزلية الصغيرة ليكون من دخلها مئناً للأسر الفقيرة على سد حاجاتها ورفع مستوى حياتها . ولا تغفل انشاء الصناعات التي تتوفر أسبابها في مصر واستغلال الأراضي البور ومختلف موارد الثروة المصرية ونشر التعليم بين سواد الشعب فلا سبيل الى النهوض بالعلاقات الفقيرة بنشر تعليم شعبي صالح يعمم عن طريق الالزام وبغير تضاعف جهود القائمين بالأمر والعاملين على الإصلاح على رفع المستوى الاقتصادي لتلك الطبقات الى مستوى يتفق مع الكرامة الانسانية لأن الفقر والجهل هما علة جل ان لم يكن كل مشاكل الأسرة في تلك الطبقات



هذه يا سادة أهم مواطن الضعف في العائلة المصرية اجمالاً منها ترون ان بعض تلك العلل يرجع الى اثر الرجل وأنيته وبعضها يرجع الى تقاليد كان لها أثر بعيد وبعضها يعود الى نقص التربية وعجز القوانين عن حماية العائلة وتوفير أسباب سلامتها وتفسير الشارع المصري في سد هذا النقص واذا كنت قد أغفلت ذكر كثير من الصوب والعيادات التي تحتاج الى الإصلاح والتعقيم كحب الظهور والتيل الى الامراف وأساءة البعض لفهم الحرية وأطرقهم في الاختلاط فلأني أخشى ان يطول بنا المقام ان أنا استعرضت كل ما تشكو منه الأسرة المصرية واكتفيت بما قدمت من المال لأنى رأيت فيها أعظم ما يهدد كيان الأمر ولا بدّ من المبادرة الى علاجها انتهى بمجتمعنا ومصرنا العزيزة . وختاماً أشكركم على حسن اصنائكم

الادب والعلم

مفاضلة بفلم أستاذ كبير

الروايات المماثلة أصدق وأبقى من كتب العلم

وليم ليون فلبس William Lyon Phelps أستاذ الادب الانكليزي ورئيس دائرته في جامعه يال الامريكية مشهور في اميركا واشتهر بمذكراته الادبية السالفة وآرائه في تاريخ الادب الانكليزي وقدمه. فهو خصص للادب حشاً من العلم ولكنه ليس منصب رجل بحسب الطوى الخفيفة من عينيه. بل هو يؤيد رأيه بالحجة القوية والواقع انجاباً غير يسير من الحق ملازم رأيه في الناحية التي اختارها للمناقشة بين العلم والادب قال : —

مع أن العلم يفوق الادب في دقته وروعة الجديد فيه إلا أنه لا يكاد يقرب من الادب المالي في صدقه فالروايات العظيمة أصدق في الطالب من أي مؤلف علمي

لنقرض انني استاذ للطبعة وانني دخلت ذات صباح حجرة التدريس وقتلت لتستعمل اليوم كتاباً في الطبعة الف من خمسين سنة أي سنة ١٨٩٠ فلاريب عندئذ في أن الضحك انقلب على الطلاب . فأقول لهم : ألم يكن مؤلف هذا الكتاب ثقة في موضوعه ، ألم يكن أميناً للعلم وللحقيقة ؟ فيردون عليّ كان المؤلف كل ذلك وأكثر منه ، ولكنه وضع مؤلفه من خمسين سنة . ولو كان حياً اليوم ، لما كان له مقرر من تنقيحه وإمادة كتابته وطبعه . ان الطالب المتدنى في علم الطبعة يستطيع أن يشير الى ما فيه من خطأ يجب أن يمحذف ، أو قول لا يدب من تعديله . لان كثيراً مما كان صحيحاً في عرف العلم سنة ١٨٩٠ أصبح لا يستقيم اليوم . بل هناك أشياء كثيرة كانت صحيحة سنة ١٩٢٠ في نواح من علم الطبعة ولكنها ليست صحيحة اليوم . فالعالم يجب أن يدأب على تنقيح مؤلفاته بجاراة لتقدم العلم ونحوه

والواقع انني اظن ان معدل عمر النظرية الطبية لا يزيد على سبع سنوات . فإ يكاد ينتشر أحد الباحثين نتائج بحث قضى فيه ثلاثين سنة ، حتى يطلع باحث آخر بعد بضع سنوات يبحث آخر يهدم به معظم ما ذهب اليه الباحث الاول

فيجب ان تستوثق أيها القارئ عند ما تتبنا كتاباً علمياً ، أو دائرة معارف من ان الكتاب أو الدائرة من أحدث طبعة . ومن المقابلات الطريقة ان الطبعة الاخيرة من الكتب العلمية

هي أكبر قيمة من نسخ الطبعات القديمة، إلا لمن يبتغي الضمة القديمة لحفظها في متحف أو «مستراح» على حالة العلم في موضوع ما في وقت ما. أما الآثار الأدبية العظيمة فأقدم الطبعات أغلاها على الإطلاق وليس السر في هذا الثغرات بعيد الثور.

كان العلامة دارون سامراً لكثرة الأول عالم لا يشق له غبار. والثاني روائي من الطبقة الأولى. فالأول دون في مؤلفاته «الحقيقة» عن التطور المصنوي كما تبينها واستخرج الأدلة على صحتها. والثاني صنف روايات، ولكن لو كان دارون حياً اليوم لا يضطر أن يحذف صفحات متعددة من كتبه وأن ينقح الصفحات الأخرى. أما دكتور فلا يكون مضطراً أن يحذف كلمة واحدة من رواياته. إن كتاب «أصل الأنواع» لا يصح بمحذوفه الآن ولا يستقيم بل أن طائفة من رجال العلم ترى أن جانباً كبيراً منه خاطئ. أما «دأيد كورفيلد» آية دكتور في تأليفه الروائي، صداقة اليوم صدقتها يوم كتبت وأخرجت للناس.

الف شكبير مسرحية «حملت» من نحو ثلاثة قرون. ومع أنني استاذ للأدب الإنكليزي، وأمتاز على شكبير بأني درست ثلاثة قرون من هذا الأدب التالي كانت حالته بالأعلام والباخرة، أحسبني أكبر أبله في الدنيا إذا حاولت أن أتبع رواية حملت. ولقد اتج لي أن أشاهد درامات يونانية كتبت أربعة قرون قبل المسيح، تمثل أمام أبناء القرون العشرين فتترك أثرها البالغ في قوسهم وعقولهم. إن هذه الروايات في صدقتها، كأنها كتبت البارحة. فما الباعث على ذلك وما تفسيره؟

إن النتائج التي يفضي إليها البحث العلمي، والتصريحات العلمية العامة التي يفوه بها العلماء، تتقلب وتتحول متأثرة بموامل متعددة. بل قد تكون الأسس التي يقوم عليها البحث العلمي عرضة للريب. حالة أن الحكايات العظيمة، والقصائد، والدرامات، صادقة كانت وصادقة ما تزال. والباعث على ذلك في نظري، هو أن الروايات العظيمة قائمة على فهم أو وصف شيء مستقر، لا تتغير أصوله ولا تبدل إلا على المدى البعيد وهو «الطبيعة البشرية».

الطبيعة البشرية لا تتغير. لم تتغير في الماضي مدى التاريخ المعروف ولا يحتمل أن تتغير في المستقبل الذي يدركه الخيال. فالرجال والنساء الذين نرام في شوارع المدن العظيمة في سنة ١٩٤٠ محرّكهم نفس التوازع والفرائز والشهوات والرغبات التي كانت تحرك الناس قبل عشرة آلاف سنة، أفذ كانوا يطاردون بعضهم بعضاً بالغمس. والفرق الوحيد بين الفريقين أن الجماعة التي توصف بأنها متدنة تمكنت بالتعليم أن تفوق أسلافها قليلاً في السيطرة على نوازعها.

إن رجاء الإنسانية ليس بمفقود على تغيير الطبيعة البشرية، ولكنه معاق بزيادة السيطرة على بواعثها الأساسية وفقاً لأحكام العقل وضرورات الاجتماع (مقولة بصرف بسبب)

مصر وطريق الهند

في القرن الثامن عشر

— ٢ —

لجمال الدين الشيال

(المناقشة تبدأ بين انكلترا وفرنسا للسيطرة على طريق مصر — البحر الأحمر) — في هذه الآونة كانت المنافسة بين انكلترا وفرنسا على أشدها . وقد وجهت هذه الحوادث نظر الفرنسيين نحو مصر ففي سنة ١٧٧٢ أرسل إنسلي إلى حكومتها تقريراً يخبرها فيه بأن البارون دي توت Baron de Tott المقيم في القاهرة للتور التجاري الفرنسية في الشرق قد زار القاهرة ساعياً لامتضاء معاهدة تجارية مع المماليك^(١) . وذكر إنسلي في تقريره أيضاً أن بنته دي توت كانت تلمي بأمر أكثر جدية من هذه المعاهدة وأنها كانت تعني بدراسة الوسائل الممكنة اتباعها لمرور مصر والوسائل الممكنة لفتح طريق تجاري فرنسي بين مصر والمهند وإعادة حفر الخليج الذي بين النيل والبحر الأحمر، كان لهذا الحادث الفضل كل الفضل في تقرب شقة الخلاف بين بلدون Baldwin من ناحية وإنسلي Ainslie والحكومة الانكليزية وشركة المهند الشرقية من ناحية أخرى، وسافر بلدون في سنة ١٧٧٨ إلى القسطنطينية ليعي هو وإنسلي لدى الباب العالي كي يسمح للسفن الانكليزية التي تحمل المراسلات بالوصول إلى السويس ولكن الحكومة العثمانية رفضت هذا الطلب وحذرتها من السماح لأية سفينة بالتقدم شمالاً ثم جدة . وعاد بلدون إلى القاهرة مظهراً الطاعة ولكنه فيها يثني وينقح نفسه لم يطلع عن الفكرة لأنه كان لا يزال يتقيد بأفضلية طريق السويس^(٢)

وأخيراً اقترح إنسلي على وزارة الخارجية أن تشمل طريقاً آخر لإيصال مراسلاتها إلى المهند . هذا الطريق يبتدىء من حلب ويمتد إلى العراق إلى البصرة ومنها إلى بياي . . . (وقد استعمل هذا الطريق بعد ذلك بقليل مدة احتلال الفرنسيين لمصر ١٧٩٨ — ١٨٠٩) ولكن هذا الطريق لم يكن بالطريق الآمن ذلك لأن الرعيان كانوا يغيرون على المسافرين فيسلمونهم معهم وقد يقتلونهم

(١) Ch. Roux, Op. Cit. P. P. 94-95 (٢) Hoskins, Op. Cit. P. 20

ولم تكبد تبدأ سنة ١٧٧٩ حتى بدا للجميع ان طريق السويس على وشك ان يهجر ، فقد كان الباب العالي عاقداً لنية الجازمة على القضاء على تجارة الفرنج في البحر الأحمر وهذا الحادث التالي يدل دلالة واضحة على قوة عزم الباب العالي . ففي الرابع والعشرين من شهر مايو ١٧٧٩ وصلت الى السويس مئيتان تحملان العلم الدانمركي ولكن بفودهما رجل انكليزي اسمه جورج مور G. Moore وكان مور يحمل معه خطاب توصية من حاكم بنغال الى الأمير المملوكي في القاهرة وكان معه في السفينة رجل ألباني يدعى فان در فلدن Van der Velden يحمل أيضاً خطاب توصية من نفس الحاكم الى بلديون Baldwin

أما بلديون فلم يجرؤ على مساعدة القوم . ولكنه عندما وصلت أوامر الأمير المملوكي بالاعتناء بتجارهم تقدم وساعدهم حتى أفرغوا بضاعتهم . . وصار مور الى القاهرة تاركاً صحبه في مهمتهم وبعد قليل اتخذ الباقون (وهم هذا الألباني وأربعة من الانكليز وفرنسيان) طريقهم في قلعة تحمل تجارتهم نحو القاهرة وقد بدأوا رحلتهم آتين غير مسلحين أو مستعدين لمقاومة ما عساه يتعرضون من أخطار ذلك لأن الأمير المملوكي لم يؤمنهم على أنفسهم وتجارتهم لحسب ، بل زودهم بالرجال التي تحمل تجارتهم نحو القاهرة . ولكنهم فوجئوا بعد ان اجتازوا مرحلة قصيرة من رحلتهم بمجاعة من البدو انقضوا عليهم فسلبوا بضاعتهم التي كانت تقدر بمبلغ ٣٧٥٠٠ جنيه بل وسلبوا ملابسهم التي اتطلى أجسادهم وتركوهم عراة حيارى في الصحراء . وقد عاد أودونيل O'Donnell سي - وهو أحد الاربعة الانكليز - الى السويس . وأما الباقون فقد اعتقدوا أنهم يستطيعون الوصول الى القاهرة فاصروا في طريقهم ، ولكنهم سرعان ما ضلوا الطريق فقتلوا نجدهم من الجوع والعطش والتعب وضربة الشمس ، إلا واحداً من الفرنسيين أنقذه أحد الفلاحين وهو في آخر رسق من حياته

وصل أودونيل O'Donnell الى القاهرة عن طريق السويس وحالدا استطاع بمساعدة بلديون الحصول على مبلغ من المال كدية للمساعدة وفي نفس الوقت غير الأمير المملوكي خطته وأرسل فرقة من جنوده تبلغ المائتي جندي استولت على ما في السفينتين من تجارة . وألقى القبض على مور وبلديون وأودونيل وأودعهم جميعاً السجن وأرسل اليك تقريراً بالحادثة الى الباب العالي كما أرسل بلديون وأودونيل تقريرهما كذلك الى السير روبرت إينسلي Sir Robert Ainslie واقفى الباب العالي على الإجراءات التي اتخذها أمير القاهرة لأنها تنفيذ لسياسة وروغبته ، كذلك لم يجد إينسلي اهتماماً ظاهراً لنفس السبب وأن كان قد سعى سبباً جديداً لدى الباب العالي ليأمر بإطلاق سراح الاسرى ، وهذا ما فعله أمير القاهرة قبل ان يصله امر السلطان لأنه أحسن الأثر السيء الذي تركه الحادث في دول غرب أوروبا جميعاً

أطلق الأمير سراج أمراء كلمه ما بعدا بلديون ولكن هذا سرعان ما انتطاع القرار من سجنه وهرب من مصر - تاركاً وراءه جميع ممتلكاته - على سفينة فرنسية حمله إلى أنزيم Smyrna ومن هناك ارتحل بلديون إلى القسطنطينية حيث بقي شهراً طويلاً يوزع الخوم في خنق وألم على كل من ظنه سبياً في هذه المأساة الأخيرة وخاصة على القاجر البندقي ذي النفوذ الكبير كارلو روسيتي Carlo Rosetti ، وعلى رئيس الجمرك الطون قيس ، وفي سنة ١٧٨٠ ذهب بلديون إلى انكلترا محاولاً رفع شكواه إلى حكومتهم شهياً إنسلي بما كتبه وبخيانة وطنه وعملاته الأتراك في سياستهم، ومحاولاً في الوقت نفسه اقناع حكومتهم بالسعي لتشجيع طريق السويس وتحت التجارة والملاحة. وقد أثبت التحقيق براعة إنسلي ، ولكن أخبار هذه الحادثة وصلت متأخرة إلى الهند وانكلترا ولذلك فقد قصدت في صيف سنة ١٧٨٠ سفينتان إنكليزيتان إلى مدينة القصير فأُنزلت إلى البر خمسة من رجالهما الإنكليز ، وفي القاهرة أمر أربعة منهم وسمح للخامس بالسفر إلى القسطنطينية ومعه الرسائل التي كان يحملها إلى انكلترا ، وهناك فتحت إحدى هذه الرسائل ومنها علم الأتراك أن السلطات الإنكليزية في الهند لا زالت دائية السعي لفقد الصلات التجارية مع ممالك مصر تبعاً لنصوص معاهدة سنة ١٧٢٥

ويمكن إنسلي بصعوبة شديدة من اطلاق سراح مواطنه وإرساله إلى انكلترا بما معه من رسائل . أما السفينتان الرايستتان في القصير فقد دم البدو ملاحيهما وقتلوا منهم خمسة حتى اضطروا الزمان إلى اطلاق مدافعه على المدينة

وارسلت الحكومة الإنكليزية إلى الهند تكرر أوامرها وتشدد في تنفيذها - ألا يتقدم أحد بتجارته أو سفنه شمال جدة ، ولكن ما حدث لقافلة سنة ١٧٢٩ ، وما حدث لرسلة سنة ١٧٨٠ كان أسرع انتشاراً وأعظم أضراراً من أوامر الحكومة الإنكليزية أو الباب العالي أو شركة الهند الشرقية

وإذا أصبحت الاخطار التي تحدق بالتجارة إلى مصر أكثر من أرباحها ، وإذا أصبح الاتصال بمصر يعتمد على السفن المصرية التي تدير بين جدة والسويس فقد هجر هذا الطريق هجراً تاماً ، ولذلك لم تكن تنتهي سنة ١٧٨٠ حتى أفلست السفن الإنكليزية عن الذهاب إلى السويس . وبقرار هذه الحقيقة هوسكنس ^(١) « By the end of 1780 it was said that English vessels no longer came to Suez »

أثارت هذه المحاولات اهتمام دول غرب أوروبا لهذا الطريق ولذلك فقد حاولت النمسا أن

(١) Hoskins, The British Routes to India, P. 25

توجد لها — بالاتفاق مع الباب السالي — وكلاء أو فاعل تجاريين في القطر المصري (في الاسكندرية والقاهرة والمدن الكبيرة) ولكن هذه المحاولات لم تستمر طويلا

(فرنسا تتحيز للوثوب على مصر) وكانت فرنسا تصوب أنظارها في جشع منذ آمد بيد نحو مصر ، وكانت تحفزها الى الوثوب ظروفها السياسية وعلاقتها المعقدة مع انكلترا ولذلك فلما — بعد سنة ١٧٧٨ ، وبعد ان عقدت حلفاً مع المستعرات الأميركية ضد بريطانيا — تضاعفت رغبتها في شل حركة التجارة الانجليزية في الشرق ، ومارضت اقتراحات كثيرة لتنفيذ هذه الرغبة ، كان بعضها يرمي الى الاتفاق مع ايران للوصول الى الهند ، وكان بعضها يرمي الى احتلال مصر وبلاد العرب وفتح قناة تصل البحرين الأحمر والأبيض

وفي سبتمبر سنة ١٧٨٣ عقدت معاهدة سلمية بين فرنسا وانجلترا وبذلك أسدل الستار مؤقتاً على هذه المشروحات وحاولت فرنسا الوصول الى الاتفاق مع ممالك مصر كما فعل الانجليز سنة ١٧٧٥ وبدأت الحكومة الفرنسية فأرسلت الى ممثليها لدى الباب العالي تسأله عداد تقرير تقارن فيه بين فوائد الطريقين المؤديين الى الهند وهما : طريق البصرة ، وطريق السويس

وفي سنة ١٧٨٤ وصل الى مصر القائد الفرنسي البحري شفاليه دي تريغيه Chevalier de Truguet ، وقد رآه ان يكون أحسن حظاً وأكثر نجاحاً من صحبه جميعاً ، ذلك أنه كان يحل الى امراء الممالك في مصر خطاب صداقة من القبطان باشا قائد الأسطول التركي ، ولأنه كان على اتصال وثيق بالتاجر الفرنسي الشهير شارل مجالون Charles Magallon . وإذا عرفنا ان مجالون كان قد قضى في مصر ما يزيد عن العشرين عاماً امكنه ان اكتسب في خلالها تفوذاً لا بأس به ، أدركنا كيف سهل على تريغيه الوصول الى الاتفاق مع الممالك

وأضمت المعاهدة في فبراير سنة ١٧٨٥ بين مراد بك وتريغيه ونصت على ضمان الحريات بأنواعها المختلفة للتجار الفرنسيين كما نصت على تخفيض الضرائب الجبائية على التجارة الفرنسية تخفيضاً كبيراً

وعقد اتفاقان آخران : أحدهما بين تريغيه ومدير الجمارك في القاهرة خاصاً بالضرائب التي تفرض على البضائع الفرنسية عند توريثها في السويس ، والآخر بين تريغيه وأحد مشايخ العربان خاصاً بالقوافل التي تحمل البضائع الى القاهرة ، وبهذا وصل الفرنسيون الى ما لم يصل اليه الانجليز في محاولاتهم الماضية جميعاً

(انجلترا ترأب المحاولات الفرنسية وتحاول القضاء عليها) أحسن رجال الحكومة الانجليزية بالدم يأكل تقوسهم أن أصرؤوا في الماضي على المدول عن طريق السويس ، وانتهز

هذه الفرصة بلديون ورفع شكواه الى الحكومة صرى من الهم التي نسبت اليه ، ونشر في ذلك الحين كتيباً صغيراً عن الموضوع أسماء :

"The Communication with India by the Isthmus of Suez, vindicated from the Prejudices which have prevailed against it."

وَحُطِّلَ فِيهِ وَجْهَةٌ نَظَرُ كُلِّ مَنْ مِنَ الْحُكُومَةِ الْعَالِيَةِ وَشَرَكَةِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ وَأَثَبَتْ بِطُلُوعِهَا ، وَأُطِّحَ عَلَى الْحُكُومَةِ الْأَنْجَلِيزِيَّةِ أَنَّ أَمِيدَ السَّيْرِ لَاسْتِمَالِ هَذَا الطَّرِيقِ وَالْآنَ جَاءَ الْيَوْمُ الَّذِي يَصِحُّ فِيهِ رِسُولُ الْأَنْجَلِيزِ إِلَى مُتَلَكِّاتِهِمْ فِي الْهِنْدِ تَحْتَ رَحْمَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ وَبِإِذْنِهِمْ

وَعَهْدَ إِلَى بَلَدِيَّيْنِ أَنْ يَضَعُ مَذْكُورَةً يَصِفُ فِيهَا كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْأَنْجَلِيزِ إِحْيَاءَ عِلَاقَتِهِمْ مَعَ مِصْرَ مِنْ جَدِيدٍ ، وَكُتِبَ بَلَدِيَّوْنِ الْمَذْكُورَةِ وَيُسَّانُ الطَّرِيقَةَ الْوَحِيدَةَ هِيَ تَعْيِينَ قَضَلِ الْإِنْجَلِيزِيِّ فِي الْقَاهِرَةِ بِرِسَالٍ مِنْ قِبَلِهِ مَسْدُودِينَ لَهُ إِلَى الْأَسْكَندَرِيَّةِ وَالسُّوَيْسِ ، وَاقْتَرَحَ لِنَظْمَةِ مِصْرَ فِي هَذِهِ الْوَكَالَاتِ السَّيَاسِيَّةِ حَلًّا مِنْ ثَلَاثَةِ :

١ — أَحْيَاءُ التَّجَارَةِ بَيْنَ الْهِنْدِ وَالسُّوَيْسِ وَوَضْعُ ضَرِيَّةٍ خَاصَّةٍ عَلَى هَذِهِ التَّجَارَةِ تَقْطَعِي هَذِهِ الْمَصَارِيفَ

٢ — أَوْ الْغَاءُ الْإِحْتِكَارِ الَّذِي تَتَمَتَّعُ بِهِ شَرَكَةُ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ وَنَحْوِهَا الْإِطَاعَةُ الْحُكُومِيَّةُ السَّنَوِيَّةُ الَّتِي تَتَمَتَّعُ بِهَا إِلَى هَذَا الْفَرْضِ

٣ — أَوْ تَكْفُلُ الشَّرَكَةُ بِدَفْعِ هَذِهِ التَّفَقَّاتِ مِنْ دَخْلِهَا الْخَاصِ وَوَأَقْبَتِ الْحُكُومَةُ الْأَنْجَلِيزِيَّةُ عَلَى الْفِكْرَةِ ، وَعُيِّنَ بَلَدِيَّوْنٌ قَسَهُ قَضَلًا فِي مِصْرَ ، وَقَبِلَتِ الشَّرَكَةُ أَنْ تَضَعُ لَهُ مَرْتَبَةً السَّنَوِيَّةَ وَقَدْرَهُ ٥٠٠ جِنِيَّةٍ ، وَحَدَّدَتْ مَهْمَتَهُ بِهَذِهِ الْأَعْرَاضِ :

١ — أَنْ يَسْلُحَ لِحَايَةِ رِطَابِيَا صَاحِبِ الْجَلَالَةِ إِتْمَاءَ تِجَارَتِهِمْ وَمُرُورِهِمْ بِمِصْرَ

٢ — أَنْ يَسْلُحَ لِدَى الْحُكُومَةِ الْمِصْرِيَّةِ لِلْحَصُولِ عَلَى ضَمَانِ لِحَايَةِ رِطَابِيَا صَاحِبِ الْجَلَالَةِ وَتِجَارَتِهِمْ فِي ذَهَابِهِمْ إِلَى الشَّرْقِ وَإِلَيْهِمْ مَتْنٌ

٣ — وَهُوَ الْأَمْرُ — أَنْ يَرِاقِبَ حَرَكَاتِ الْفَرَنْسِيِّينَ مَرَاتِبَةً دَقِيقَةً وَأَنْ يَرْسِلَ لِحُكُومَتِهِ التَّقَارِيرَ الْوَالِيَّةَ عَنْ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ

وَأَمْرَتُهُ الْحُكُومَةُ الْأَنْجَلِيزِيَّةُ أَنْ يَسْلُحَ أَوَّلَ مَا يَسْلُحُ إِلَى عَهْدٍ سَاحِدَةٍ مَعَ الْمَالِيكِ لَا تَقُلُ فِي إِتْيَازَاتِهَا عَنِ الْمَعَاهِدَةِ الَّتِي عَقَدَتْهَا فَرَنْسَا ، وَهَدَّتْ الْحُكُومَةُ لَهُ الطَّرِيقَ فِي الْقَسْمَطِطِينِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَنَادِرَ وَطَنَهُ إِلَى مِصْرَ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الرِّغْبَةُ اعْتَرَضَهَا فَرْمَانُ الْبَابِ الْعَالِيِّ الْقَاضِي بِتَحْرِيمِ مَرُورِ التَّجَارَةِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي الْبَحْرِ الْآخَرِ ، فَأَرْسَلَتِ الْحُكُومَةُ الْأَنْجَلِيزِيَّةُ إِلَى أَسْلِي تَأْمُرَهُ أَنْ

يحمل أساس حربه مع السلطان الامتيازات التجارية والبحرية السخية التي منحت الانكليز سنة ١٧٦٥

وأطلع بلديون في اغسطس سنة ١٧٨٦ قاصداً مصر ليتولى منصبه الجديد ، ولكن حظه السيئ كان بلازمة اذ كان في مصر وقت وصوله جيش واقد من تركيا لاخضاع الأمراء الثائرين ، كما كانت حالة البلاد الداخلية تهم بأشد أنواع القوضى

كانت مصر في ذلك الحين مسرحاً لنزاع دائم مستمر بين امراء المماليك ، وكان المتطلب من هؤلاء الأمراء يتولى الرش ، ولكنه لا يلبث إلا قليلاً حتى يقدر به أمير آخر فيأخذ سكاكه بعد أن يفتنه ، وكان كل أمير يحس أن أجل حكمه قصير ، ولذلك كان يبيع كل البهل المشروعة وغير المشروعة لاجتماع على المال ، وكان الباب العالي أمام الارتباكات الداخلية ، ونحت الضغط الروسي للملح الدائم لا يستطيع أن يتخذ أية اجراءات إيجابية لاخضاع هؤلاء المماليك . ولكن للكيل مفتح أخيراً فقد طلب مراد بك سنة ١٧٨٦ مبلغاً من المال من قاض الدول الارمنية في مصر وإلا عمد إلى تخريب كنيسي الفرنسيكان في الاسكندرية ، ويقال إن هذه الوسيلة كانت من ابتكار القصل الروسي في الاسكندرية البارون دي تونوس Baron de Thonns أمام هذا الخطر الدائم لجأت الهيئة الدبلوماسية الاوربية في الاسكندرية الى منعي دولها في القسطنطينية ، وذهب وفد من وكلاء هذه الدول جميعاً — ماعدا السويد وانجلترا — يقدمون شكواهم الى الباب العالي ، ووافقت هذه الشكوى حوى في قس السلطان بقرار المل على إيقاف أمراء المماليك عند خدم ، وسرطان ما اتخذ الاسطول التركي أهته كي يتقدم نحو مصر ، ولم يشأ السلطان أن يستد قيادة الأسطول الأكرهانه الأكبر حسن قبطان باشا (١) أما إنجلي فمع أنه لم يشترك في هذه الشكوى فقد سار لهذه الاجراءات لأنها تنقضي اذا نجحت على مساعدة سنة ١٧٨٥ القرلية الملوكة

وومثل الأسطول الى الاسكندرية التي سلت دون مقاومة تذكر ، وسار الجيش التركي الى رشيد ثم القاهرة فاستولى عليها بعد أن طارد جيش مراد وابراهيم نحو الصعيد ويبدو أن الأتراك لو كانوا قد أحرزوا النصر في وقت غير هذا لفرح الانكليز به أيما فرح ، ولكنهم وجوا لهذا النصر وأسفوا له كل الأسف ، ذلك لأن مبونهم بلديون كان قد وصل مصر في ذلته الجين لمقد مساعدة مع المماليك فاذا به ابرام مهزوين فارين الى آقاصي الصعيد ، وإذا به يرى الاتراك يستولون على أزمنة الأمور في مصر فلم يكن أمامه إلا الاعتراف بالأمس

الواقع فاستقر في عمله وعين له مندوبين في الإسكندرية والسويس . وفي مارس سنة ١٧٨٧ قابل القبطان باشا محاولاً تحقيق رغبته بالاتفاق معه^(١)، ولكن هذا كان يحمل معه اقرمان انفاضي بتحریم الملاحة المسيحية في البحر الاحمر كذلك كان إنسلي يسمى - من ناحيته - لدى الباب العالي ليحيطمسي بلدين ، أما الحكومة الانكليزية فكانت قد عزمت عزماً أخيراً على استعمال طريق السويس وخاصة لتيسير تبادل الرسائل بين انكلترا والهند

وأنى انكلترا حظها الحسن فنشبت الحرب في خريف سنة ١٧٨٧ بين تركيا وروسيا واستدعى القبطان باشا من مصر ، ومنذ ذلك الحين تغير اتجاه السياسة التركية ، وابتدأ القبطان باشا يميل الى الاتفاق مع الانكليز والترخيص لهم بالمرور في البحر الاحمر ، ولكنه فوجيء بمساعدة انكلترا لروسيا إذا اكتشفت تركيا أن انكلترا تعد عدوتها بالسفن الحربية في أثناء هذا كله كان بلدين ذائب السمي لتحقيق سياسته ، وكان مجهوده مضاعفاً لأنه كان يعمل لتحقيق فكرة يدين هو بها قبل أن تكون مهمة قد كلفتها الحكومة بتنفيذها وأخيراً استطاع بلدين - في أبريل سنة ١٧٨٨ - أن يرسل الى حكومته نتيجة سعيه، وتتلخص فيما يلي :-

« لقد نجحت في الحصول - من حكومة القاهرة - على حق السماح للسافرين والرسائل بالوصول الى السويس بسفن الشركة ، وأن تفرغ هذه السفن ما تحمل في أمان ، وأن يمر هؤلاء خلال مصر في سلام ، ولقد أرسلت الأوامر بهذا الى السويس ، وأما لا أشك ان هذه الحكومة لو استبدلت بغيرها فانه ليس من السير الوصول الى الاتفاق قه مع الحكومة الجديدة »^(٢)

ثم عاد فأرسل الى حكومته كذلك في فبراير سنة ١٧٨٩ يخبرها بوصول سفينتين فرنسيتين الى السويس وانه قد سمح لهما بقرنغ بضائهما ، وانه يسهل البدة لاستقبال سفينتين تجاريتين انكليزيتين آتين من الهند وأن : « المرور في مصر الآن حراً اذا شاءت الشركة ان تستله »

(انكلترا تفكر في إلغاء تصليتها بمصر) كان الاضطراب السياسي في مصر الناجم عن التنازع المستمر بين الوالي الثاني الذي يحاول عبثاً استرداد السلطان الفعلي لدولته وبين أمراء

Hoskins Op. Cit. P. 38 (١)

Hoskins Op. Cit. P. 42 (٢)

التي كانت ثمارين بزماعة مراد وإبراهيم والذين كانوا يحاولون هم أيضاً القبض بيد قوية على مغاليد الأمور في مصر. كان هذا الاضطراب عاملاً من أهم العوامل التي زعزعت الأمن وهددت التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب بطريق السويس. ولذلك أخذ الانكليز حوالي سنة ١٧٩٠ يصدفون عن هذا الطريق لأنهم لم يحبوا الأرباح التي أمتثلوها من تبادل التجارة بهذا الطريق بل كثيراً ما زادت أرباحهم من التجارة المتبادلة بطريق رأس الرجاء الصالح رغم بعده وكثرة مخفاته على أرباحهم التي جنوها من تبادل التجارة بطريق السويس.

ولذلك فقد تقدم اللورد جرنيل Lord Grenville وزير الخارجية الانكليزية في سنة ١٧٩٢ الى هنري دونداس Henry Dundas وزير الحربية باقتراح لالغاء وظيفة القنصلية في مصر لكثرة نفقاتها وقلة ثمنها. ولم يلاق هذا الاقتراح قبولاً في هذه السنة، ولكن اثورد جرنيل أطاق الكرة في السنة التالية ١٧٩٣ قائلاً أنه اذا كانت القنصلية الانكليزية في مصر ذات نفع لشركة الهند الشرقية فلتتول هي أمر نفقاتها والا فلا داعي لبقائها. وكان الاقتراح حلاً سحماً لأن شركة الهند الشرقية، والادارة الهندية لم تقبل واحدة منها ان تريد على نفقاتها مبلغاً لا يقل عن ألفي جنيه سنوياً. ولذلك فقد أرسلت وزارة الخارجية في اثنان من اكتوبر سنة ١٧٩٣ رسالة الى مصر تلني فيها انتداب بلدون كقنصل لانكلترا.

ولكن لحسن حظ بلدون وصل هذا الأمر في غير حينه — ذلك أنه بينما كان جرنيل يؤكد أن لا فائدة من وجود بلدون في مصر كان الأخير يؤكد من ناحيته العملية أهمية مجهوداته التي يبذلها في سبيل الامبراطورية. وتفصيل ذلك أنه في ذلك الحين — أي في اليوم الأخير من شهر يناير سنة ١٧٩٣ — كانت الحرب قد أعلنت بين بريطانيا وفرنسا وأصبح الاتصال بين لندن وبين الميناء الحاكمة في الهند أكثر أهمية للانكليز منه في أي زمن مضى منذ عين بلدون قنصلاً في مصر. ولم تكن أخبار اعلان الحرب تصل الى بلدون حتى أسرع فأرسلها الى الهند قبل أن يصل الى علم الحامية الفرنسية هناك أي خبر عن اضطراب الحالة في أوروبا. وبذلك استطاع الانكليز الاستيلاء على Pondicherry وطرد الفرنسيين من الهند.

كان هذا عاملاً هاماً حفز دونداس Dundas الى أن يثير على وزارة الخارجية كي تسأل على استمرار قنصليتها في مصر وعلى تأييد بلدون في سياسته لما أبداه منغيرة وحاس في الدفاع عن صالح الامبراطورية.

وكان من حسن حظ بريطانيا أن بلدون لم يتأخر منصبه لأنه لم يستلم، لسبب غير معروف أمر عزله الصادر في ٨ فبراير ١٧٩٣، ولكنك مرض في ذلك الحين وكان مزمعاً السفر الى لندن حينما استندت الحكومة الانكليزية وكيه الشخصي في لندن وأبلغته شفيهاً ان يكتب الى

بلدوين يخبره بأن الحكومة تريد أن تستقيه في مركزه متولية أمر ثقافته حتى تصح الحرب بينها وبين فرنسا أوزارها . وبذلك استأنف بلدوين مهمته وكان شيئاً من هذا الاضطراب لم يحدث

(بلدوين بمقتد معاهدة جديدة مع مراد وإبراهيم) كانت المهمة الأولى لبلدوين عند أول تعيينه قنصلاً في مصر — كما ذكرنا — أن يمتد معاهدة تجارية مع ممالك مصر . . . ولذلك انتهز بلدوين هذه الفرصة السانحة وعقد هذه المعاهدة بينه وبين مراد وإبراهيم وقد حصل فيه على الترخيص للسفن الإنجليزية بالملاحة في البحر الأحمر حتى مدينة السويس وعلى الترخيص للتجارة الانكليزية بالمرور في أمان بين السويس والاسكندرية . وذلك مقابل أن يدفع التجار ضريبة مقدارها ١/٢٠ للمالك مصر — يدفع نصفها التجار الانكليز والنصف الثاني الصلاء المقيون في مصر . . . وليس غريباً أن نذكر أن المالك قد رحبوا بمقتد هذه المعاهدة أكثر من رحيب بلدوين واستطاع أن ندرك لماذا لم يكن هذا غريباً إذا عدنا إلى الماضي قليلاً لنذكر أن غالبية زوة المالك التي مكنتهم من أن يحبوا هذه الحباء الفسقة بالذبح والتفريغ . . . كان مصدرها الرسوم الجمركية الباهظة التي كانوا يتقاضونها على التجارة المارة عبر مصر من الشرق إلى الغرب . فكان لتفريغ البضاعة في الموانئ رسوم خاصة ولحقق الأبحار رسوم خاصة وللجمر كرسوم خاصة ولحقق الشحن رسوم خاصة وهكذا . . . وإذا تذكرنا أيضاً أن هذا النبع النياض قد غاض مئنه منذ نحو ثمانين عاماً إلى رأس الرجاء الصالح . . . فليس غريباً إذن أن يحن المالك إلى قطرات تحاول أن تتحدر اليهم من هذا النبع الذي طالما مقام اليهم والعدل

وسمى بلدوين من ناحيته سبياً حينئذ ليتوج هذه المعاهدة بالتجاح فأرسل صورة منها إلى الحكومة في لندن وأرسل صورة أخرى إلى الهند يؤكد للتجار هناك أنه المؤكد في أن الحكومة العثمانية سوف توافق على هذه المعاهدة دون شك ودفعه إلى تأكيد هذا الأمل أن عدوه الألد إنلي كان قد ترك مركزه في القبطانية ليتولاه من بعده روبرت لستون R. Liston . لكن إنلي حين عاد إلى لندن كان أكبر همه أن يقضي على آمال بلدوين بتسقيه آرائه والتقليل من قيمة مجهوداته لدى وزارة الخارجية . ولذلك لم يحصل بلدوين من حكومته حتى على علم بوصول (A. R.) المذكورة عن المعاهدة

(مصر تثير اهتمام روسيا وفرنسا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر) وبينما الحكومة الانكليزية تحاول جهدها خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر لكي تفرض يدها من مصر وطريق السويس تماماً ، كانت هناك على الأتقى دولتان قويتان تثير مصر اهتمامهما باستمرار . . هاتان هما روسيا وفرنسا

أما روسيا تحت حكم كاترين الثانية فقد كانت تعتمد الآمال الطوائ وتحاول تنفيذها للوصول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط . . . ولذلك ابتدأت إظهارها توجه نحو مصر . وفي سنة ١٧٨٥ حاولت فتح من ممانيك مصر بزعمه إبراهيم بك تعزيز الجبهة لاهم بالتحالف مع إحدى الدول الأجنبية ولهذا السبب دخلوا في مفاوضات سرية مع روسيا . وعلم الباب العالي بهذه المفاوضات فأسرع بإرسال بعض القوى لتعزيز الدفاع عن مصر أمام الغارة الروسية المنتظرة ولكن روسيا لم تدفع بإرسال هذه الغارة وانتظرت فرصة أشد كما في الحرب مع تركيا حينها كانت مصر ولا قوة تحميها فأرسلت في أغسطس سنة ١٧٨٨ فرقاطة حربية مزودة بأرسين مدفأاً وتصبها نفلان تحملان بعض المدد والسلاح والهدايا إلى الأمراء . . . ووصلت هذه السف إلى دياط بقودها القنصل الروسي السابق Baron de Thouas . ولانقت هذه الحملة العنبرية كل عون من القنصل الفرنسي في ثر دياط . وكانت مهمة الروسيين في الواقع مساعدة المماليك للقيام بثورة ضد الترك . ولكنهم لم يفلحوا في مهمتهم والفضل في ذلك يرجع إلى دهاء الوالي العثماني في مصر في ذلك الوقت وهو استاعيل باشا

وفي سنة ١٧٩٠ أرسل إنجلي إلى حكومته من القسطنطينية تقريراً آخر يخبرها بزم الروسيين على غزو مصر . . . ولكن هذا الزعم لم يكن أكثر من خطة وضمت لإرسال ثمان سفن حربية تمخض طريقها حول رأس الرجاء الصالح وتمتد إلى البحر الأحمر فتهدم جدة وينبع وتخرب مكة والمدينة وفير الرسول ثم تهدد مصر ذاتها . . . كانت هذه خطة وضمت كما ذكرنا ولكن الروس لم يجدوا في أنفسهم الشجاعة الكافية لتنفيذها

(مقدمات الحملة الفرنسية على مصر) أما فرنسا فقد كانت أشد حرصاً في انبهاها . . . وكانت المنافسة القديمة بينها وبين بريطانيا في الشرق والغرب على السواء تحس الخطر الذي يهددها ويهدد تجارتها إذا تحققت محاولات بلدون المتكررة للسيطرة على طريق السويس . كذلك كان لرحلات الفرنسيين المتتابعة إلى مصر في القرن الثامن عشر ، ونخص بالذكر منها رحلتى تولن وصافاري Savary — أكبر الفضل في توجيه أنظار الفرنسيين إلى مصر . ولذلك لم تلبث فرنسا أن أعادت إنشاء قنصليتها في القاهرة في ١٣ يناير سنة ١٧٩٣ واختارت لها الناحر بحالون Magallon وجاء هذا التبعين قبل الأمر بزل بلدون بقعة أيام عما أثار احتجاج الإنجليز لدى حكومتها بطلبون استمرار بلدون في مصر

وفي أكتوبر سنة ١٧٩٥ وصل إلى الاسكندرية Dubois Thainille ومهته ان يمدد معاهدة مع المماليك افتتح طريق التجارة والمواصلات بين السويس والهند . وسرمان ما استنف

بلديون من هذه المحاولات ان الفرنسيين يزعمون الاغارة على الهند عن طريق مصر بإرسال جيش عبر مصر الى الهند لمساعدة Tipu سلطان ميسور ولإغواء على السيطرة الانجليزية في الهند. وسرعان ما أرسل تقريره الى حكومته يخبرها بنبأ هذه المحاولات. ربما يؤيد صحة هذا الخبر أن Magallion كتب الى حكومته سنة ١٧٩٥ يخبرها بأنها من الممكن ارسال قوة من الجيش عن طريق السويس عند ما تكون الرياح مواتية — وان الجنود لا يمكنهم فوق البحر عن هذا الطريق سوى ستين يوماً في حين أنهم يستغرقون ستة أشهر اذا اتفعلوا عن طريق رأس الرجاء الصالح كما يقول « لا تفقد رجالاً في المائة ، على حين أننا نكون سعداء لو فقدنا عشرة رجال من مائة لو قمنا الطريق الآخر » وتوضيح فكرته كتب الى وزارة الخارجية الفرنسية يقول :

« بالرجل من طولون في العشرين من يونيو تستطيع القوى الفرنسية الوصول الى الاسكندرية في العاشر من يوليو والى القاهرة في العشرين منه والى السويس في الخامس والعشرين وبعد ستة واربعين يوماً تصل الى الهند قبل أن يكون الانجليز قد اتخذوا غدهم للدفاع .. وان عشرة آلاف فرنسي يستطيعون في معركة واحدة اقتلاع الانجليز من الشمال حصنهم المنين »
ويقال ان رسائل Magallion كانت السبب الاكبر في اثاره النقاش بين رجال حكومة الادارة حول موضوع الاغارة على مصر فاستدعى ماجالون الى فرنسا لاستشارته. وفي سنة ١٧٩٧ كانت فكرة الحملة على مصر ثم على الهند قد اختبرت في رؤوس رجال الحكومة وابتدأت تخطط الخطوات التنفيذية. ومما ساعد على نجاحها ان بلديون الذي كان يقف لكل فكرة من هذا النوع بالمرصاد كان قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً وضف بصره فنادر مصر الى وطنه حيث قضى الايام الباقية من حياته



والقراء الكرام يعرفون جيداً ما كان بعد ذلك من أمر الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ وما كان من أمر فتح قناة السويس في عهد اسماعيل وما نأه حتى اليوم من طيبة موقع بلادنا في هذا الطريق الى الهند أغل درة في التاج البريطاني والى اجزاء الامبراطورية الاخرى كاستراليا أو نيوزيلند. ومن هذا أيضاً تدين ان هذا الموقع المتناز يستلزم من كل فرد في مصر ان يكون في نفسه قوة جارية حتى تستطيع هذه القوة مجتمعة ان تساعد فتكون درعاً حصيناً يحمي هذه الكنانة المباركة من كل معتد أنهم

الحياة والموت

لا بُدَّ لللسان من ضعف لا تقليب السُّجَّع عن جنبه
 ينسى بها ما كان من عجبهِ وما أذاق الموت من كربهِ
 نحن بنو الموت . . ، فما بالنا نفاقاً ما لا بُدَّ من شربه ١١
 تَبَحَّلُ أَيْدِينَا بأرواحنا على زمان همّ من كَسْبِهِ ١١
 فهذه الأرواحُ من جَوِّهِ وهذه الأجسامُ من تُرْبِهِ
 لو فكّر العاشقُ في مَنَاقِي حُسْنِ الذي يبيدُ لم يَسْبِهِ
 لم يُرَ قرن الشمس في شرته فتكّت الأنفس في غربهِ
 يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طَبِّهِ
 وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على مَرَبِّهِ
 وغاية المفرط في رِيسِهِ ككفاية المفرط في حربهِ
 فلا قضى حاجته طالبٌ نَوَّاده يخفق من رعبهِ

[لأبي الطيب المتن]

القبط وما يجب عليهم

نحو هذه اللغة

لغزير لامل

الاموضع للجدل والملاحظة في ان لغة أهل مصر: مسلمهم وقبطهم هي اليوم لغة العربية . نعم انه كانت لهم قبل الفتح العربي لغتهم المصرية وهي التي اصطلحنا اليوم على تسميتها « اللغة القبطية » وقد رافقتهم ثلاثة آلاف سنة أو أربعة آلاف ، بل بقيت لنا ما لم تحق بعد الفتح بضعة قرون . ولكن اللغة العربية كانت تزحفها شيئاً فشيئاً عن مواضعها في دواوين الحكم ثم في سائر مرافق الحياة الى ان تركتها محصورة في الكنائس

ومما يحسن ذكره في هذا الشأن ما قاله المرحوم السيوطي في العلامة الأثرية في خطبة خطبها في نادي رسيين في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وهو : —

« من المؤكد ان سكان مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى القرن الأول من القرن السادس عشر في أوائل حكم الترك . . . ولم يبق بعد ذلك قرن ونصف قرن حتى قدم الى مصر سائح فرنسي يدعى فالسليب في أيام لويس الرابع عشر فقدم اليه آخر قسيس قبطي يحيد التكلم باللغة القبطية ويحجوز كانت تمارسه هذا الامتياز »

وليس المراد من قولي ان اللغة العربية هي لغة مصر الوطنية ان يهمل القبط لغة مصر القديمة او يظنوا من نشاطهم في الناية بها مع ما يرونه من اهتمام كثير من علماء اوروبا بنشر كتبها وتأليف معجماتها ، حسبها جدارة بالخلود انها كانت المفتاح الذي فك به العلامة تيمبوليون رموز الكتابة الهيروغليفية على جدير رشيد وبالتالي كان لها الفضل الأول في فض اختتام الحضارة الفرعونية واماطة اللثام عن وجه المدينة المصرية التي لا تزال آثارها موضع غفار المصريين وسبب باهائهم بالانساب الى اولئك الأجداد

ولكنني أعني بقولي هذا ان اللغة القبطية لم تمد — ولن تمد — لغة الأم والبيت والمدرسة والمكتب والنصح والمنجر والمزرعة لأن اللغة العربية قامت مقامها في ذلك جميعه . وبات لهذه على القبط حق في ان يحذقوها ويأروا مواضعهم في التطلع منها والتفوق فيها ولا أجهل ان القبط يلقون اللغة العربية في المدارس ويحفظون نحوها وصرفها ويقرأون

ويكثرون ويختصرون أحج ما به، وإن قرأ منهم بحجدها، غير أن انتفاعه بهذا القدر دون الاستزادة منه هي التي أردت أن أتبه الأذهان إلى ما فيها من خطأ. وأمل كثيرين غيبي شعروا بمي بالموافق للبررة لهذا الشغل حينما أنشئ به مجمع نؤاد الأول للغة العربية ولم يجد المسؤولون «طائفة» قبطياً واحداً في هذه اللغة قبطاً بأن يضموا إلى أعضائه المصريين والأجانب

ويلوح لي أن علة تخلف القبط في هذا الميدان هي أنهم اكتفوا من اللغة العربية بما يكفل لهم كسب عيشهم اليومي. ولكنهم حتى في هذا المجال الضيق كان محصولهم دون الكفاية. متفقين أن الانقطاع لانسان لغة العربية أو التمسق في درسها لتتوس على دورها والوقوف على أسرارها ليس ضرورياً لاستدوار أخلاف الرزق. وهذا هو موضع الخطأ فلماذا ليست كل شيء في الحياة الحبيدة التي يجب أن تنجها الأمم « وليس بالحز وحده يحيا الانسان » بل هناك الظموج الأسمى. وهناك لغة العلم لقادته. وهناك التخصص للخدمة ونفع المجموع. ومع ذلك فليس أبعد عن الصواب من قول القائلين أن التبوغ في اللغة العربية ليس مورداً للارزاق. فتحت في عصر قصت فيه الأمة المصرية والأمم العربية شوطاً بعيداً في ميدان الرقي الفكري وبتضاعف على الزمن عدد المتعلمين وبذلك تنبع آفاق الأمل بواج بضاعة الأدب العربي بين هذه الأمم

وقد يملل بعضهم عدم تمكن القبط من ناصية اللغة العربية بأن أبواب الأزهر الشريف لا تفتح لهم، فقل هؤلاء يهوتهم أن في كلية الآداب في الجامعة المصرية قسماً للتخصص في اللغة العربية يقبل فيه المصريون بلا فارق. ويهوتهم أكثر من هذا أن علماء اللغة العربية في مصر وسوريا وفلسطين والعراق وبلاد المهجر ليسوا كلهم من تلاميذ الأزهر الشريف ولا تخرجوا في كلية اللغة العربية أو في دار العلوم

فأحمد شوقي والشيخ محمد الحصري وأحمد زنائي وخليل مطران وبشارة الخوري والأب ألسان الكرمي والمرحوم الدكتور صرّوف والدكتور فارس عمر باشا وغيرهم من أعلام اللغة في هذا للقرن والقرن الماضي لم يطلوا عتبة الأزهر ولكنهم بلغوا أرفع مراتب الاجادة في اللغة نراً و نظراً بما تلفوه من مبادئها في المدارس وما أضافوه إليها من تاج تحصيلهم الشخصي

ومن الغريب أنه ظهر من القبط في القرن الثالث عشر الميلادي غير واحد من جهابذة اللغة العربية كأبناء السبيل. ثم نضب حين هذا التبوغ فجأة ولم يسع بددهم بأن غيرهم بلغ مدام إذا استفتيا بمختايل عبدالسيد وتادرس وهي في غيب القرن الماضي ومطلع القرن الحالي بعدداً بعد على أصابع اليد الواحدة من الذين أهلهم منلوامتهم لتدريس اللغة العربية في المدارس الحرة

وبات جهد ما وحلتا إليه أن الذين خلا نظمهم من اللحن وتزجت كتابتهم عن السمة والركاكة لبسوا الأحقة صغيرة . أما سظم الذين يقرأون ويكتبون مناء فلتتهم أقرب إلى «ججمة» منها إلى العربية ، حتى أن الدكتور طه حسين بك لم يسه إلا أن يشير إلى « لاحظنا على رجال الدين القبط من القصور في هذا الباب في فعلهم يجب أن يقرأ القبط في كتابه «نفيس» مستقبل الثقافة في مصر »

وكم حز في نفسي ما قرأته في عدد من أعداد مجلة المصور الثراء عن عضو قبطي يحترم في أحد مجلتي البرلمان المصري وهو قولما « جذبا لو كانت لغة الخطيب لغة عربية مصونة بنحوها وصرفها ونصبها ورقمها » مع أن هذا العضو المحترم مثقف ثقافة عالية

ومن تمصيل الحاصل أن أصف جمال اللغة العربية وعمقها وسموها وغناها بالأماني الرائعة والخيال الراقى وما فيها من قول سري معجز ومن ضروب الكلام البليغ والقصيد المرقص . علاوة على أن العرب طالجوا بكلامهم شؤون الحياة واختباراتنا ونوازع النفس الباطنة وخطراتها وارتفعوا في كل ذلك إلى ساطع الأفلاك وصفاً وتحليلاً واستنباطاً

وحسبي أن أحبل القارئ إلى أعلام كتبها وعيون مصنفاتها كالحمامة وتكامل والامالي واليان والتبيين والمقد الفريد والأغانى ونهج البلاغة وأسرار البلاغة ودرابون البحري وأيونغان والنتي والأخطل وشوقي وحافظ وأصحاب الملتفات والمجمرات وعشرات الشعراء في الجاهلية والاسلام وفيها من أفاين النثر والنظم ما يفوقم اللسان ويكسب حسن البيان ويولي المرء الاجادة في التيسير والتبريز في التصنيف والتجيد ويورثه مكان الصدر من أمة الكلام وفواره الكتاب وخلة الأفلام . يتعاق بالحكمة ويكشف عن علو الهمة بما يروي من روائع الأدب العربي وبما يحمله حجة في أصول اللغة وثقة برجح إليه في قواعدها وبمول عليه في تقييد شواردها

وبلوع هذه المرقبة في معرفة اللغة العربية والسباحة في محيطها الخضم لا يتيسر ان الطالب في صني الدواة بل أنها يتوفران بالثابرة على الماطلة والبحث والاستظهار . ومن طلب الملا سهر البالي . ومن خطب فتاة العربية أمرها المهر الخالي . وما نفع علماء العربية في جميع القصور إلا بالكند وانضاء القوى في الانقباس والاقتناس ورواية أجود الشعر وأرق النثر

فالذي أودع أن يعنى القبط بهذه اللغة أضاف ما أراه من هذه الناية وإن يبرز منهم في علومها وآدابها وقوتها وتاريخها عشرات ومئات حتى لا نطن بهم الظنون ولا توجه اليهم عزرات الميون ولا يقال أنهم في هذا الميدان عاجزون أو متخلفون

وإذا وضع الشبان منهم نصب عيونهم الاستبحار في اللغة العربية ولبثوا الفاية من ذلك فأنهم

بعلمهم هذا لا يخدمون أنفسهم وحدها بل يخدمون الوحدة الوطنية ويعززون الرابطة القومية
أن من القبط كثيرين يحمدون الكلام والكتابة والتأليف باللغتين الإنجليزية والفرنسية
وإنهم يتقن اللغة الإيطالية أو الألمانية ، وأما نطلب نلزيد من هؤلاء « فكل لسان بالحقيقة
إنسان » . ولكن علام يدل هذا يا ترى . أنه يدل على أن في مقدور القبط أن يتحدثوا اللغة
العربية بالأولى وهي اللغة التي ترافق المرء من المهد إلى المهد

وللشبان قدوة حسنة وأسوة طيبة بصاحب السادة واصف غالي باشا فإنه لم يكتب بما
كتشف من كنوز اللغة العربية بل أضاف إلى ذلك أنه نقل بعض هذه الكنوز إلى اللغة الفرنسية بمؤلف
شهير نال من أكرام المصريين أجسين في حقلة أقيمت له في سنة ١٩٠٦ . وفي هذه
الحقبة قال أحمد شوقي :

إنما واصف بناه من الأخلاق في دولة التشارق عال
واحب المال والشباب لما ينفع لا للهوى ولا لالذلال
ومذيق القول في الغرب عما عصر العرب في السنين الخوالي
في كتابه حوى المحاسن في الشر وأوعى جرائز الأمثال
من نسب نجاد القيد منه شرك الحسن أو شبك الدلال
ونظام كأنه تلك النيل إذا لاح وهو بالزهر حان
وبيان كما تجلى على الرسل تجلى على رعاة الضال
ما علمنا نعبرم من لسان زال أهله وهو في إبدال
بليت حاشم وبادت زار والسان المين ليس ببال
كلا هم مجده بزوال قام نخل نخل دون الزوال

إلى أن قال : —

يا شباب الديار مصر اليكم ولواء العرب للآشبال
كلما دومت بشبهة بأنس جلتكم معادل الآمال
هيوما لا يلبق بمف وكرم الآثار والاطلال
هيوما لما أراد (علي) وتمنى على الظبي والعوالي
وانهضوا نهضة الشعوب لدنيا وحياء ككيرة الاشبال
وإلى الله من مشى بصليب في يديه ، ومن مشى بهلال

الشعر

في المعارك والحروب

لمحمد عبد النبي حسن

ذكرتني المقطوعة الشعرية الانجليزية « في سهول الفلاندرز » بموضوع لا تفرغ مادة الكتابة فيه ولا ينتهي أمد الحديث عنه ، وهو موضوع الشعر والحرب . وهذه المقطوعة لطيب كندي اسمه (جون ماك راى) كان سابطاً في الجيش البريطاني في الحرب العالمية العظمى وشهد بينه حول المعركة التي ظلت ستة عشر يوماً أسفر فيها دوي القنايل ، ودمدمت المدافع عن سكون الضحايا وهمة الموت في مقابر فسيحة تُرى فوقها الصلبانُ صفوفاً إثر صفوف^(١) وامل هذه الأيام هي أكثر الأوقات مناسبة للكلام عن الشعر والحروب ، فنحن نقرأ كل يوم خبراً عن معركة ، أو نسمع وصفاً لموقعة ، أو نرى أثراً لغارة في البر والبحر ، والسمل والوعر ، والنفس والشفع . ونرى عروشاً تزول ، وممالك تدول ، وأبرياء يصلون بحر النار ، وهم لم يكونوا يوماً من جناء الحروب ولا ألسان القتال

وقد يتشعب بنا الحديث وتفتح مسالك القول لو أخذنا نحصى المعارك العالمية من فجر التاريخ وبيد التدوين وما قبل فيها من شر ، أو ظهر فيها من شرار . فذلك يقتضي إحاطة شاملة ومعرفة تامة ، وذلك ما لا ندعي لأخسنا العلم به أو الاقتدار عليه إلا أن المطالع في الأدب العربي ، والقارئ لتاريخ العرب في جاهليتهم وإسلامهم يصادف كثيراً من شعر الحروب ، ويقع عليه خلال قراءاته على أبيات متائرة أو قصائد مطولة قيلت في إثارة حرب ، أو مجدة صريح أو في وصف معركة أو في التفاخر بالشجاعة المبدولة ، والزمرة الماضية ، والبلاء الحسن ولقد كان للعرب في جاهليتهم حروب كثيرة وأيام مشهورة ذكرتها كتب

(١) من مقال في مجلة النيويورك تيمس عدد يناير سنة ١٩٣٨ بقلم برنهارد راجر

التاريخ والأدب . وعد منها أن رشيق الفيرواني صاحب كتاب المدة خسة وخين يوماً^(١) . واكتفى بما ذكر تاركاً ما بقي منها لتكتب الخاصة بذلك الموضوع . ولا يدخل في ذلك العدد أيام الرسول ووقائمه مع المشركين فقد أفردت لها دراسات خاصة في كتب السيرة ومراجع التاريخ الأولى كالطبري وابن هشام والحرب نكبة ينل بها العالم وتكتب بها الأمم ، وبشترك في أحوال ضررها الحارِب والمسلم والقاعد والمهاجم ، ويذكرها أناس ويصل ناراها قوم براء ولا شك أن العرب من قديم ذاقوا حرارتها واحتلوا برمتها . ولذلك قالوا فيها : الحرب غشوم ، لأنها تذل غير الجاني . وسأل عمر بن الخطاب عمرو بن معديكرب الزبيدي عن الحرب فقال : « سُرة المذاق إذا قلصت عن ساق ، من صبر فيها عُرف ، ومن ضعف عنها تلف »

ولقد وصفها الحكيم الشاعر بيتين ماديّين : (٢)

الناس في الحرب شقي وهي مقبلة ويستون إذا ما أدير القُبلُ
كلُّ بأُمسيتها طِبٌ موليّة والعالمون بذئ غدوتها قُبلُ
وصور شاعر آخر قيامها وهي فتية تفرى بالسلب والنشيمة ، وتكرها بعد ذلك كأنها عجوز شحطاء . فأحسن التصوير ، وأبدع التشبيه حيث قال (٣) : —
الحرب أول ما تكون فتية تسمى بزيتها لنكل جهول
حتى إذا استمرت وشب ضرامها طادت عجوزاً غير ذات خليل
شحطاء جزّت رأسها وتكرت مكروهة للشم والتقييل
وما أشبه الحرب بالحلب مع فارق في الفياس وخلاف في النتيجة ، فأولها يكون الحاجة وكلاًناً . وثانيهما يكون مجاعة وتسلياً . ولكن الحب إذا تمكن صار شغلاً شاعلاً ، والحرب إذا استمرت صارت شرّاً وبلاء . وما أصدق جفثر قول نصر بن سيار فيها :

فإن النار بالمودين تذكي وإن الحرب أوّلها الكلام

(١) الجزء الثاني من « المدة » ص ١٦٠ طبعة أمينة هندية بمصر
(٢) عن عيون الأخبار ج ٢ ص ١٢٧ (٣) عن البند الفرید وعبود الأخبار

فإن لم يطفها عقلاء قوم يكون فسادها جنث وهام

والشعر مبعثاً^(١) في الحروب يحرك النفوس ، ويمكن السخائم من الغلوب ،
ويصور الحيان فيقلبه شجاعاً ويعبره مقداماً ، ويذكره الوديع^(٢) الحبيب فيقلب
أسداً تحسب السماء على صدره ولا يندمى على العتق كلفه . ولقد تشبع
سأوية بن أبي سفيان وصبر على قتال علي بن أبي طالب حينما ذكر أبيات الشاعر
عمرو بن الأخطابة^(٣) : —

أبت لي همي وأبي بلائي وأخذني الحمد بالنس الریح
وإفداني على المكروه نفسي وضربي حامة البطل المشج
وقولي كلما حشأت وجاشت : مكانك تحسدي أو تترجي
لأدفع عن سائر سالحاتي وأحمي بدني عن عرض صريح
وأخرب من هذا في باب إثارة الشعر للنفوس وتحريك السخائم أبيات قالها
سعد بن مالك بن ضبيعة يعرض فيها بالحارث بن عباد لأنه ترك حلفاءه من بكر
يقاتلون بني ثعلبة ويخلف عن القتال قائلاً « لا فاقني فيها ولا جلي » . ولقد دفعت
هذه الايات الحارث بعد تخلفه الى القتال دفعا وهي غير متفقة^(٤) : —

ياؤوس للعرب التي وضعت أراهم فاستراحوا
الحرب لا يتي لها حها الخيل والمراح
الأثني المبار في السجيدات والقرنم الوقاح
والثوة الحصداء والبيض المكلل والرماح
كشفت لهم عن صاتها وبدأ من الشعر الصراح
فالهم بيضات الحدود وهناك لا اتعم المراح
بفس الخلاص بمدنا أولاد بشكر والفتاح
من صد عن نيرانها قانا ابن قيس لابرار

(١) الحسائكون من مرد تحرك به النار اتبع (٢) الحيان (٣) عن قتال العر
وصبر الانبار (٤) من حامة أبي تمام ج ١ ص ١٩٤ طبع مصر

صبراً بني قيس لها حتى ترهبوا أو راحوا
 أنت السوائل خلفها إساقه الأجل المتاح
 هيأت حال الموت دونه القوت واتضي السلاح
 كيف الحياة إذا خلت بنا الظواهر والبطاح ؟
 أين الأعزة والأسنة عند ذلك والسماح ؟؟

ومن عجائب الأمور أن الحارث بن عباد هذا هو الذي أثار بشعره القوي بني بكر على بني تغلب ليأخذوا بنار ابنه بجير الذي قتله مهلهل . وكان قد اعتزل القتال ومال إلى السلام . فلما جاءه مقتل ابنه لم يجد إلا الرمح والشعر داعياً . وسار شعره في القبائل — قبلت بني بكر — محرّضاً على القتال ، موجعاً للنفوس ، ملئاً في حق الرائد المشيط ، وسخط الشيخ المدور به قیامة إلى الحرب ، داعياً بفرسه (النعامة) قاتلاً

قرباً مربوط النعامة مني لفتحت حرب وائل عن حبال
 فلمري لأتعلن (ينجير) عدد الذرة والحصى والرسال
 قرباً مربوط النعامة مني ليس قولي يراد لا بل ضالي
 يا بجير الحيرات لا صلح حتى تملأ اليد من رؤوس الرجال
 لم أكن من جئاتها علم الله واني لحرتها اليوم صالي
 وما كذب الشاعر ولا افترى . فقد كان قتالا لا قوالا ودخل الحرب
 وخاض المعركة آخذاً نفسه بالوعد الذي وعد ، والهد الذي قطع ، وهو ألا يتم
 الصلح حتى تملأ الأباطح برؤوس

وقد يجمع الشاعر إلى مهمة الإثارة في الحرب مهمة تخذيل العدو ، والفت في عضده ، وإشاعة التخويف في جوائب نفسه حتى لا يقدم على محاربة قومه وسقائه أهله . ومهمة التخذيل هذه تقوم بها الآن مكاتب الدعاية ، إلا أن هذه سبيلها التزود تلك سبيلها الشر والغرض في الحالين واحد والناية في الهمدين متحدة . واسلمهم اتخذوا الشر في الصور الأولى لذلك نظراً لمكانته في النفوس وموقعه في

القلوب وأثره في الاستماع ، ولأن الشعر كان طاعياً على الترفاع عليه ، وكان له
دونه المحل والمقام ، والمزك والمكان . وأحسن مثال يحضرنى الآن لهذا النوع
من الشعر أبيات قلها ودألك بن ثعلب المازني وكان بنو شيان أرادوا إبعاد قومه
— بني مازن — عن ماء لهم فأخذ الشاعر يهدد الأعداء ويخذلم ويصور قومه في
صورة الأبطال الذين لا تخضع شوكتهم ولا تفسر قناتهم قائلاً (١)

رؤيت بني شيان بض وعيدكم تلافوا غداً خلي على صفوان
تلافوا حياء لا تحمد عن الوغى اذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها السكاة النثر من آل مازن ليوث طمان عند كل طمان
تلافوهم فتمروا كيف صبرم على ما جنت فيهم يدُ الحدثان
مقاديم وصالون في الزرع خطوم بكل رقيق الصفرتين يمان
اذا استجدوا لم يسألوا من دعاها لأية حرب أم بأي سكان

ولأنه كير فرق بين وصفه لحيله وجنوده وصبرم على القتال وسيوفهم الجبانة
الناطقة وبين وصف المتحاربين اليوم لما عديم من مذخور العدد ومطوي العناد
وقد يكون من علامة الشعر والحرب الفخر الذي نراه كثيراً في كتب الأدب
وهو ظاهرة تلفت النظر في الشعر العربي . وقل أن نجد لذلك نظيراً في آداب
الأمم الأخرى . ويكون هذا الفخر بالشجاعة ذا قبة لو لم يجاوز الحد المعقول أو
يخرج إلى الإغراق في الباطلة . ويكون أقرب إلى الصدق لو عرف عن الشاعر ميل
إلى الفروسية أو إخلاص في البلاد . وقد كان ذلك واقعاً في الشعر الجاهلي وعصر
الاسلام الأول ، اللهم إلا بعض الشعراء الذين عرفوا بشجاعة اللسان وحين القلب
كحسان بن ثابت . فقد كان في لسانه جرأة وفي قلبه تسب

أما في العصور المتأخرة في الاسلام فقد صار الشعر تقليداً لما قاله الأرائل وتردداً
لما تناولوه من الماني . وصرفنا نجد الفخر بالشجاعة مثلاً صناعة تصنع ، وأتفاظاً
تردد . ولو لم يكن لصاحبها من صدقها نصيب كما يقول ابن سناء الملك : —

سواي بهاب الموت أو زهب الردى وغيري يهوى أن يمشى مخلاً
ولكنني لا أخذر الموت إن سطا ولا أرهب الموت الزؤام إذا عدا
ويغرق بعد ذلك في الفخز الكاذب . وهو غر — فها أظن — يدعو إليه
الشعور بالنقص فيقول : —

وأنت عيدي يا زمان واني على الرغم مني أن أرى لك سيدي
ومن أصدق الفخر بالشجاعة والتحدث بالبطولة ما ذكره عنزة السبي عن
قسه وصدق بلائه في الحرب وانجاء الأنظار إليه وبماته على جواده في سلقته
التي يقول فيها : (١)

لما رأيت القوم أقل جميعهم يذامرون كروث غير مذمهم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بشر في لبان الأدهم
مازلت أرميهم بكرة وجهي وليأني حق نسر بقل بالدم
فأزور من وقع القتا بلائه وشكا الي بسيرة وعصم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولما كان ، لو علم الكلام ، مكلمي
ولا يقل عن عنزة صدقاً في الفخر بالشجاعة في الحرب وصدقاً في التبرير
والوصف حينما يلتقي الجمعان — الشاعر الفارس قتادة بن ملحان الخثعمي الجاهلي
الذي يصور معركة (حيرحان) خير تصوير حين يقول (٢) : —

قاتلتهم حتى تكافأ جميعهم والحيل في سبل الدماء تعوم
اذ تشقى براء آل مقياس حدة الأسلحة والسيوف — نيم
لما اتى الصفان واختلف القتا والحيل في نفع العجاج أوزم
في النقع ساهمة الوجوه عوايس وبين من دعى الرماح كلوم
يمت كبتهم بطنة فيصل نهوى لحر الوجه وهو ديم
ومني أسود من حنيفة في الرغي للبيض فوق رؤوسهم نسوم (٣)
قوم إذا لبسوا الحديد كأنهم في البيض والحلق الدلاص نجوم
وهناك نوع من الشعر كان له في ساح الحروب مكان أي مكان . وهو الأراجيز

(١) شرح القصائد الشعرية لشريرزي (٢) الطامة ج ١ ص ٣٢٠ (٣) علامات

التي يشدها المحارب أو المحاربون . وأغلب الظن عندي أنها كانت تنشده على توقيع خاص لم يصل إلينا علمه وهذه الأراجيز مبنوثة في كتب التاريخ ، ويجد القارئ كثيراً منها في كتب المغازي والفتوح . وأغلبها كانت يستعمل في التحريض على الحرب والاستمالة بالصبر حتى يكتب الفوز ، ويتم النصر

ولقد قيل في الجاهلية من هذه المرنجيزات كثير، وقيل في الإسلام كثير كذلك حتى لتجد الكثير منها مشتركاً في ألفاظها وحكاياها، فلا تكاد تعرف القائل الحقيقي والأرجح الأصلي . وبعض الأمثلة تكشف عن ذلك ، ففي واقعة ذي قار التي كانت بين العرب والفرس قبل الإسلام يقول حنظلة بن نملة مرنججاً ^(١) : —

الفرس فيها وتر عرود^١ مثل ذراع البكر أو أشد^٢
قد جعلت أخبار قومي تبدو أن المنايا ليس منها بدء^٣
ويقول أيضاً

يا قوم طيخوا بالقتال فلا أجدر يوم أن تغلوا القرم^٤
واليت الأول بما قاله الحجاج بن يوسف الثقفي في عصر بني أمية همدأ^٥
شروعاً لأهل الكوفة ^(٢)

وفي واقعة ذي قار نفسها وقعت امرأة عرية تحض الناس وتقول مخاطبة الرجال من قومها ^(٣) : —

إن تهزموا فماتق^٦ وفرش الفارق^٧

أو تهربوا ففارق^٨ قراق غير وابق^٩

ولكن ابن هشام ^(٤) صاحب السيرة النبوية يذكر أن هنداً بنت عتبة وقتت تحرض الرجال على القتال في غزوة (أحد) بهذه الأبيات نفسها مع استبدال كلمة تهزموا بكلمة « تقيلوا » . وهند بنت عتبة هذه هي المشركة التي بقرت بطن حمزة عم النبي في غزوة أحد وأخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع إسامتها فلققتها من قها وعلت على صخرة ترعجز منشفة من المسلمين :

(١) الطبري ج ٢ ص ١٥٤ (٢) كتب الادب (٣) الطبري ج ٢ ص ١٥٣

(٤) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٣

نحن جزيناكم يوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُر
 ما كان عن حبة لي من صبر ولا أخي وعمي ويكري
 شفت قسي وقضيت نذري شفيت وحشي غليل صدري
 فنكر وحشي علي عمري نقي ترم^(١) أعظمي في قبري
 ولكن امرأة من المؤمنات الشفكات في الوقفة لم تنطع صراً على هذا
 الرجز الذي قيل في وسط المعركة شفاء لظليل الصدر، فردت عليها من تجزة : —
 حذرت في بدر وبدر بدر يا بنت وقاع عظيم الكفر
 صبحك الله غداة القعر من الهاشمين الطوال الزهر
 بكل قطاع حامر يغري حزة لثي وعلي صقري
 إذ رام شيب^(٢) وأبوك صدري تخضبا منه ضواحي البحر
 ونذكرك الشوه فشر نذري

ومن شعر الحروب ما قيل في وصف المعارك وصفه المواقع : وأول ما يخطر
 على البال من ذلك قصيدة أبي تمام التي يمدح فيها النعمان ويذكر عمورية ويصف
 النار والدخان فيها فيدع كل الإبداع في هذه الأيات : —
 لقد تركت أمير المؤمنين بها النار يوماً ذليل الصخر والحشب
 غادرت فيها بهم الليل وهو ضحي يلقه وسطها صبح من الذهب
 حتى كان جلايب الدمي رغبته عن لونها أو كان الشمس لم تب
 ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلعة من دخان في ضحي شجب
 ولشاعر السري الرفاء — من شعراء القرن الرابع الهجري — شعر كثير في
 المعارك والحروب ولقد كان عصره عصر فضال مع الروم . ولا تخلو مدائحه
 للأمراء من وصف دقيق للمعارك التي خاضوا غمارها وأصلطوا بارها . وكان أكثر
 الأمراء من ذلك نصيباً سيف الدولة بن حمدان الأمير الحارثي ، والبطل المجاهد .
 وتسجينا بأية للسري يصور فيها موقعة بين سيف الدولة والدمشق يقول فيها^(٣) : —

(١) قصيد رمية نخرة (٢) شيب أصله شيب ، علم حدث تاؤه ترشيباً

(٣) ديوان السري الرفاء طبع القدس ص ١٨

لما نزلت لك الجح الذي رجت أقطاره ونأت بعداً حوانة
 تركتهم بين مصبوع زائبة من الدماء ومخضوب ذوائبة
 فخائر وشهاب الرمح لاحقة وهارب وذباب السيف طالة
 يروي اليه بثل النجم طاعة وينشعبه بثل البرق ضاربة
 يكسوه من دمه ثوباً وبسلة ثيابه ... فهو كاسيه وسالية
 ولا أباغ إذا قلت أن هذه (اللوحة الشعرية) لمركبة حربية لا تقل صدقاً ولا
 روعة عن (لوحة زبينة) لمركبة حربية من لوحات السير مويرهد يون أو المشر
 روبرت أوسنين من مصوري الحرب الحديثة المشهورين

وما دامت الحروب قائمة ، وطائغ الطمع والجشع بين البشر مستعكة مسألة
 فيظل الشعر الحربي قائماً : — يمحض على القتال ، ويرني الأبطال ، ويصور من
 أهوال الحرب ما لا سيل إلى تصويره إلا بأقلام الشعراء ، وبلي من شأن
 النفوس النبيلة الكريمة التي تموت فداءً عن وطن أو ذباداً عن حق ، ويمحض على
 السلام ... نعم يمحض على السلام لوسمت الآذان المنكبة ، أو لامت القلوب المتحجرة
 وفي الصور الحديثة نجد في الحروب شعراً رائعاً قوياً . وقصيدة شوقي التي
 عنوانها : صدى الحرب ^(١) في وصف الوقائع العنيفة اليونانية مملوءة بالصور القائمة
 التي أجاد شوقي تصويرها كأنه — رحمه الله — كان مشتركاً فيها أو أخذاً
 بصيب المجاهد منها

ولمعرفة الرسافي الشاعر العراقي قصيدة عنوانها « الحرب في البحر »
 بصورها واقعة « توشها » بين الروس واليابان تصوير من رأى وطن لا تصوير
 من أنبيء وخبر . اسمه يوسف البارجة بقوله ^(٢) :

كل سخارة إذا حركت دفا عنها خضضت به القاموسا
 مذبونها لهم كنبه حرب تحذت كل مدفع ناقوسا
 عرش بلقيس في المناعة لكن قد حكمت في احتشامها بلقيسا
 ألبوها من الحديد وشاحاً فتبادت على الباب عروسا

(١) الشرحيات ج ١ ص ٣٠ (٢) ديوان الرسافي ج ١ ص ١٣١

ولقد كانت الحرب العالمية العظمى سنة ١٩١٤ وجاً لكثير من الشرء .
ومنه ولي الدين يكن الذي يقول فيها (١) :

ضاعت ميادين القتال عن المضارب والخيام
وتدافعت الحجج الدماء تمبأ أبصرها الطوامي
عند من وادر لواء در في القفائف والمواسي
نسو غواربها بها بين اضطراب وارتظام
فكأما الطوفان قد أوفى لحياد قدام
من يطلب منه اعتصام ما يمس من غير اعتصام
فتلفت زهر المدأ ن بالدخائل وبالضرام
وتوانعت من عزها آثار أسلاف عظام
فكأها بن الربوع وقد ضفت بمن الرجام
جنت على جنت عمت مثل الأكم على الأكم
فبين أوصال مزيقة وأكباد دواسي
في مشهد أهواله أهوال سابات القيام
بين القتابل والقتال والموت تخلف الرام
والجند دامية الظبي والحيل دامية الحوام
نسو جياه تم تنفضل بين أسواج الزحام
متضرعات للحيا تم ولم أضحية الحيام

ولجيل صدقي الزهاوي شعر كثير في الحرب وويلاتها كقطوعه « الحرب »
من ١١٢ من ديوانه . ومقطوعه الأخرى « شهد من الحرب الكبرى » من ١١٤
وغيرها . وكلها لا يخرج عن تصوير الحرب في أبشع صورها وأفظع مناظرها
وبعد فقد اشترك الشعر في إثارة الحروب قديماً . ورأبناه اليوم يتجه اتجاهاً
مخلفاً إلى الدعوة إلى السلام لا إلى التمسك بالأسلحة . ويتجه في وجهه ١٢ جذالاً ضحت الأعلام !



لم يكن اتخاذ بعض الأشياء واسطة لتبادل ناشئاً عن اتفاق عقد ، وإنما عن صفات خاصة
تجسدت في هذه الأشياء ، وحملت الناس على تفضيلها واتخاذها أساساً للتبادل . وأخذت هذه
الوسائل تتطور بتطور المدنية وتقدم الحياة الاقتصادية ، حتى أصبح المعدنان الثمينان — الذهب
والفضة — في الأزمنة الأخيرة أساس النقد لدى الشعوب المتحضرة ، ثم أصبح الذهب أساساً والفضة تكملاً .
ولقد لعبت الذهب حيناً من الدهر يؤدي وظيفة في الحياة الاقتصادية على خير سبيل إلى أن
تفقدت هذه الحياة ، وتشتت أوجهها ، وتباينت مظاهرها ، وتناحلت مناحيها ، فأصبح الذهب
طاجراً عن أن يقوم بمهمة الخطورة في الحياة الاقتصادية .

ولم تأخذ مسألة الذهب مكانها من الخطورة والأهمية . ولم تشر مشكلة المعدن الأصفر
كأساس للقياس . ولم تعدد الآراء بشأن مستقبله بقدر ما هو حاصل الآن . وتحمل الحرب
الحاضرة بين طائفتي بذور ثقافتها واستفحالها . بل إن هذه الحرب هي في الواقع عراك بين
نظامين اقتصاديين مختلفين يضم أحدهما دولاً تعتق فكرة قيامه بوظيفته القديمة كميزان للقيمة ،
وأنة رمز الاستقرار ورسول الطمأنينة والسلام . والأخرى دولاً ترى الذهب أثراً بالياً من
القرون الماضية ولنظراً لا يتفق وتطور الحياة الاقتصادية وما أصابها من تغير وتبدل .

وأما في هذا البحث سنحاول أن نلقى ضوءاً على تلك المشكلة يشرها للإذهان

١ — (المدول عن معيار الذهب) الأصل في معيار الذهب وجود نسبة ثابتة بين العملة
والذهب . فالوحدة النقدية هي وزن من الذهب ، وهذا الوزن له قوة إبراز غير محدودة . وما
جميع الوسائل النقدية المختلفة الموجودة في التداول إلا تمثلهما . هذا هو معيار الذهب في
جوهره . وأبسط مظاهره . وقد يمتحن الذهب من التداول كما هو الحال في نظام الصرف
بالبنائك ، بيد أن الذهب لا يزال روح النظام النقدي والقوة النابضة لجميع أنواع النقود التي
يتكون منها ، إذ ينص قانون الدولة النقدي مادة على شراء البنك المركزي أو دار الضرب
الذهب بسعر محدد وبكميات خاصة . وهذه التبعة المتبادلة بين الذهب والعملة تقوم على أساس توفيق
لبنية ثابتة من الذهب بسعر معين ، وبغير وجود هذا الأساس الثابت لا يوجد ثمة معيار ذهب

وكان اسم الأخذ بنظام ميار الذهب ما جعل الذهب أساس الأنظمة النقدية في جميع أنحاء العالم. فكان لكل عملة وزن قانوني من الذهب. وكان مقدار الذهب في كل عملة هو المحدد لنسبة صرف عملة بأخرى. وكان للذهب قيمة شرائية في جميع البلاد التي تستخدمه. وهذه القوة الشرائية مرتبطة أشد الارتباط بمستوى الأمان العام في كل دولة. فإذا حدثت في دولة ما أن أصبح الميزان التجاري موافقاً لما كان الذهب يؤمها بالقدر اللازم لسد الثغرة الحادثة بين الصادر والوارد، وإذا زاد الوارد عن الصادر في دولة لا يلبث الذهب أن ينحسر عنها فيتبدل مستوى الأمان. ويشجع هذا الميول الدول الأخرى على الشراء منها وبالتالي يتبدل الميزان التجاري في مصلحتها ويؤمها الذهب. ويمرر هذا ما تلجأ إليه الدولة من جعل سعر القطع فيها أعلى منه في الخارج فيشجع هذا رؤوس الأموال الأجنبية على الالتحاق إليها، فصيورة الميزان التجاري في صالح الدولة وتدفق رؤوس الأموال لتستثمر فيها بتأثير ارتفاع سعر القطع كضمان بتعديل مستوى الأمان داخلها حتى يندو متجانساً مع مستوى الأمان في خارجها. ولم يكن لبعده من مير نظام الذهب كاملاً على هذا النسق سوى ما كانت تضمه الدول المختلفة من حواجز جمركية على تصدير أو استيراد بعض السلع أو منحها تسهيلات لبعض السلع الأخرى إلى غير هذا من السوابل المحلية. على أن النظام في جوهره كان يؤتي ثماره ويحدث نتائج عامة ولقد كان في مقدمة أحداث الحرب العظمى الماضية، وتخلصت الدولة نحو الأخرى من نظام ميار الذهب لما تطلبت الحرب من نفقات هائلة دفعت الحكومات المختلفة على تقرير السعر الإلزامي للأوراق النقدية. وصحب هذا تحريم تصدير الذهب لاسيما وأنه كان يخشى اندفاع الجمهور نحو البنوك لتتخلص من الأوراق النقدية التي في حوزته. وما كادت الحرب تسع أوزارها حتى أخذ العالم يفكر في وصل حاضره بماضيه وفي استعادة طمأنينته وزخائنه في ظل ميار الذهب. وفلا انفصرت كل دولة إلى تحقيق هذا، ولم تحض عشرة أعوام إلا واستطاع العالم رأب ما تصدع من بنيانه، فاسترد الذهب مرثته المفقود وقر في الأذهان أن شؤون العالم النقدية قد عاد إليها الثبات والاستقرار. بيد أن عودة العالم إلى الذهب لم تتخذ سبيلها القديم. فمن الدول من أعاد قابلية صرف النقود الورقية بالذهب على أساس القيمة الأصلية (كأمريكا) ومنها من بلغ تدهور نقودها الورقية (كدول أوروبا الوسطى) حداً دفعها إلى التخلي وإيجاد نوع جديد من النقود المبدئية والورقية. ومنها أخيراً ما أعاد صرف النقود الورقية بالذهب على أساس أقل من القيمة الأصلية لوحدة النقود القديمة (كفرنسا وإيطاليا). وأنه وإن كان الذهب قد استرد سلطانه على النظم النقدية إلا أنه من بين تاياما اتخذته الدول المختلفة من السياسات النقدية بعد الحرب يمكننا أن نلمح بوادر الخطر على نظام المعدن الأصفر

فلقد نشأ عن الديون بين الحكومات وهي ديون الحرب والتعويضات سوء توزيع الذهب في العالم وتركزه في دولتين كبيرتين هاتئتين هما فرنسا والولايات المتحدة فجمع عن ذلك ندرة الذهب في المالك الأخرى وارتفاع ثمنه ونقص ثمن السلع تبعاً لذلك ، فحضر هذا الأمر الدول الأخرى على الحد من وارداتها بمعادلة ميزانها الحسابي من جهة وللحيلولة دون أسوار نظمها النقدية من جهة أخرى . ثم كانت الأزمات المالية والاقتصادية لوتابع المشكلات السياسية فعجز معها الذهب عن أن يقوم بمهته في الحياة الاقتصادية . فاضطرت الحوادث أن تجعلنا إلى الخروج من معيار الذهب في عام ١٩٣١ وتبعها في ذلك كتلة الاسترليني (السلطات البريطانية المستقلة والهند وبلاد اسكندنافيا ومصر والعراق وتركيا واليابان) وتلتها هولندا منذ عام ١٩٣٦ وفرنسا منذ عام ١٩٣٦ وبصفة خاصة في عام ١٩٣٧ بعد أن عدلت عن المدلات التي قررها قانون أول أكتوبر ١٩٣٦ ميثاقاً حدي تثير التسلة . وأنه وإن كان قانون ٢٧/٩/١٩٣٦ قد عين نسبة ما يحتويه الفرنك السويسري الذهبي بـ ١٩٠-٢١١ مليجرام من الذهب الخالص إلا أن العلاقة بين الفرنك وبين الذهب ليست ثابتة كما يبدو . وهذا يتأني شرط معيار الذهب وكذلك الحال بالنسبة للولايات المتحدة ، قلنا وإن كانت قد خففت سعر أوقية الذهب الخالص بخمسة ومائتين دولاراً إلا أن القانون أعطى الرئيس سلطة خفض هذا السعر أو رفعه حسب الأحوال بين حدي ٤٥ و ٣٤ دولاراً و ٣٤ و ٤١ دولاراً . أما ألمانيا قبل الحرب قلما كانت تبيع على معيار الذهب من الوجهة القانونية (وتجارياً في ذلك الدول التي تقيد التبادل) إلا أنها لم تكن تبيع فعلاً على مقتضاه ، طالما أن حرية انتقال الذهب ورؤوس الأموال لم تكن مكفولة فشككة الذهب إذا هي في الواقع مشكلة سوء توزيعه وحشده في الولايات المتحدة الأميركية فعجز الذهب عن أن يقوم بمهته الخطيرة في الحياة الاقتصادية على النحو القديم المعروف مما سنبينه فيما بعد

٢ - (ظاهرة حشد الذهب في الولايات المتحدة) في عام ١٩٢٣ بلغت قيمة الأرصدة النقدية المنظورة للعالم ٨ و ٥ بليون دولار تمثلت الولايات المتحدة منها حوالي الأربعة بلايين أو ٤٥ ٪ منها . وفي سبتهل عام ١٩٢٩ بلغت قيمة الأرصدة النقدية الذهبية ١٨ بليون دولار وفي آخر عام ١٩٣٨ كانت تلك القيمة ٢٧ بليون دولار وبمباراة أخرى أخاف العالم في بحر عشرة أعوام إلى رصيده نصف ما كان لديه قبل ذلك . وفي هذه المدة ارتفعت قيمة الاحتياطات الذهبية مقومة بالدولارات والتي تموزها الحكومة والبنوك المركزية الأميركية بنسبة ٢٥٠ ٪ مما كانت عليه في عام ١٩٢٩

أما إنتاج العالم من المعدن يطرده في الزيادة ويبلغ ١٣٠٠٠ مليون دولار سنوياً ، ولقد

صاحبت زيادة الإنتاج الذهب زيادة كبيرة جداً في المخزون منه في الولايات المتحدة ، فبانت
مستويات ٥٢ دولة إلى نهاية ديسمبر سنة ١٩٣٩ ما قيمته ٢٥٧٢٧ مليون دولار ، نصيب أميركا منه
١٧٦٤٤ مليون دولار . والزيادة في عام ١٩٣٩ بمقارنتها بسام ١٩٣٣ ملحوظة جداً وأعظم تماماً
من الزيادة في الفرض العالمي للذهب . ونقد تكونت من الذهب المتدفق أرصدة فائضة في البنوك
الأميركية بامت في ٢٧ ديسمبر سنة (١٩٣٩) ٥٠٤٦ مليون دولار . ولن تقل الأرصدة الفائضة
اليوم عن ٦٠٠٠ مليون دولار ، والذهب الوارد إلى الولايات المتحدة بظل فيها دون أن يكون
له من الأثر ما يحدث لو كان معيار الذهب الدولي يتخذ سبيله القديم في الحياة الاقتصادية فلم
يتبع تدفق الذهب تعديل في مستوى الأثمان وبذلك لم يجد التدفق أي طاق أمامه
وتظهر لنا الإحصاءات المينة لتطور الاحتياطي الذهبي للولايات المتحدة أنه بلغ ٩٧٩٣
مليون دولار آخر عام ١٩٣٣ وصعد إلى ١٢٧٦٠ مليون دولار في عام ١٩٣٧ وبلغ ٥٠٠٠
مليون دولار عام ١٩٣٨

وتظهر الإحصاءات أن إنتاج الذهب في الخمس سنوات ١٩٣٤ — ١٩٣٨ بلغ ما قيمته
٥٨٠٠ مليون دولار . وفي نفس المدة بلغت مبيعات مكتنزي الذهب ٦٥٠ مليون دولار ، ومن
هذا يظهر أن الولايات المتحدة في خلال الخمس سنوات السابقة الذكر قد استوعبت ، ليس كل
الذهب المستخرج في هذه المدة وسيمت المكتنزين خلافاً للذهب ، ولكنها استولت أيضاً على
جانب عظيم من الأرصدة النقدية للأمم الأخرى . ولما كانت لندن أكبر السوق المركزية
للذهب ، فمن الجدير بالملاحظة أنه منذ عام ١٩٣٤ كانت حركات الذهب بين انكلترا
والولايات المتحدة من جانب واحد أي من انكلترا إلى الولايات المتحدة لا كما كانت الحال
قبلاً من تبادلها بين البلدين وفقاً للأحوال الاقتصادية والاعتبارات التجارية البحتة

ويشير الوارد في عام ١٩٣٩ أشد حركات تدفق الذهب إلى الولايات المتحدة منذ تولى النازي
أزمة الحكم في ألمانيا حتى نشوب الحرب الحاضرة . إذ بلغت قيمة الوارد ٣٥٧٤ مليون دولار
زيادة ٨١٪ عن قيمة الوارد إليها في عام ١٩٣٨ . وتجلى هذا التدفق بصفة خاصة في مراحل
ثلاث : الأولى في سبتمبر وأكتوبر ١٩٣٨ خلال أزمة ميونخ ، وابتدأت الثانية في مارس ١٩٣٩
عند ما احتل الألمان براغ ، وبدأت الثالثة في أغسطس ١٩٣٩ وظلت في أطراف حتى قيام الحرب
وبمدها . وبهذا بلغ مجموع الذهب المتدفق إلى الولايات المتحدة من يناير ١٩٣٤ حتى أغسطس ١٩٣٩
أكثر من ٩٠٠٠ مليون دولار . كما بلغ حافي رؤوس الأموال التي أتت الولايات المتحدة
٥٣٠٠ مليون دولار ، منها يمثل أموالاً أميركية عادت إلى وطنها ، وثلاثها رؤوس أموال أجنبية
خاصة أرسلت للولايات المتحدة لشراء أوراق مالية أميركية أو لتودع في مصارفها . ومن

لجدير بالذكر أن وارد الولايات المتحدة من الذهب في عام ١٩٣٩ بلغت أكثر من ٢ ١/٢ مرة الاتاج العالمي منه في هذه السنة

وفيما يلي بيان بمودعات الدول المختلفة من الذهب في الولايات المتحدة وما تملكه من الأوراق الأميركية حتى أغسطس ١٩٣٩ ولغيب الذهب من مودعاتها بين قوسين والنسبة بـ مليون دولار، بريطانيا العظمى ٤٢٣٠ (٢٠٠٠) — فرنسا ٣٥٨٠ (٣٠٠٠) — كندا ١٦٣ (٢١٥) — بلاد فرنسية وبريطانية أخرى (٥٤٠) — ألمانيا ١٦٠ (١٥٠) — إيطاليا ٢٠ (١٩٠) — هولندا ١٧٨٠ (٧٧٠) — سويسرا ١٤٢٠ (٥٩٠) — روسيا ١٠٠٠ (١٠٠٠) — أقطار اوربية أخرى ٢٨٧٠ (٢١٩٠) — أميركا اللاتينية ١٠٠٠ (٦٦٠) — الشرق الأقصى وغيره ١٢٩٠ (٣٧٥) . المجموع ١٩٨٠٠ (١١٦٨٠) . وستناقش فيما يلي عوامل هذا التدفق وعوامله

٣ — في موافقة ميزان أميركا الحسابي لما وأثر ذلك على تدفق الذهب إليها يرى كثير من الباحثين أن تدفق الذهب إلى الولايات المتحدة ينتج نتيجة لخفض الدولار . بيد أنه يلاحظ على هذا الرأي أن كثيراً من عملات البلاد الأخرى قد خففت عيب الحرب الماضية وأنه منذ عام ١٩٣١ ارتفع سعر الذهب بالنسبة لعملات الدول الأخرى المختلفة . وبالتالي لا يمكن تفسير ظاهرة التدفق بالاختلاف الموجود بين الأمان في الدول المختلفة . فلو كانت الولايات المتحدة تفضل جزءاً أكبر من نقدتها للحصول على الذهب أكثر منه للحصول على السلع لكان من ذلك حصول الولايات المتحدة على الذهب وحصول الأقطار الأخرى على السلع الأميركية وهذا ما يأتي بهبوط أمان البضائع في الولايات المتحدة أكثر منه في البلاد الأخرى . وليس أدل على بطلان هذا الرأي من أن تدفق الذهب لم يصاحبه إفراط مماثل في الصادر من الولايات المتحدة إلى الخارج بل أن مدى رجحان الميزان الحسابي في المدة ١٩٣٤ — ١٩٣٨ كان في حبوط . بيد أن هذا لا يفي تأثير موافقة ميزان أميركا الحسابي على تدفق الذهب إليها . ففي عام ١٩٣٨ مثلاً تجاوزت الصادرات الواردات بقيمة ٩٥٦ مليون دولار، وباحتساب الواردات غير المنظورة تصبح الزيادة ٨٠٢ مليون دولار . ولقد بلغ صافي الوارد من الذهب في هذه السنة ١٦٤٠ مليون دولار . فإذا ما قارنا هذه الأرقام بما يقابلها من أرقام ١٩٢٩ وجدناها ٨٤١ مليون دولار و ١٢٠ مليون دولار على التوالي

وفي الأعوام الأخيرة اشتد طلب العالم على منتجات الولايات المتحدة فاشتدت حركة صادراتها وبصفة خاصة بعد نشوب الحرب وانصراف الدول المتحاربة لانتاج مداتها وما تبع هذا من تقلص صادراتها وصيرورة الميزان التجاري في غير مصلحتها كما سبق في موضع آخر ونعني حقيقة أخرى وهي أن الولايات المتحدة كانت تسير بعد الحرب الماضية قطعاً مقروصاً

كبيراً. على أن الحائز تغيرت في الأعوام الأخيرة فأصبحت الولايات المتحدة مدينة سنوياً بتبلغ صافي كبير يبلغ ٣٦٠ مليون دولار في عام ١٩٣٤ و ١٥٣٦ في عام ١٩٣٥ و ١١٦٩ في عام ١٩٣٦ و ١١٨٧ مليون دولار في عام ١٩٣٧ و ١١٧٤ مليون دولار في عام ١٩٣٨ ومن هذا يظهر مدى الارتباط الشديد بين واردات الولايات المتحدة من الذهب والزيادة الحالية في مديونيتها للخارج. وهذه العلاقة شاذة إلى أبعد حد، لا تتفق مع الأوضاع الطبيعية المعروفة إذ كان صافي الوارد من الذهب للبر ما هو في الأوقات العادية نتيجة معادلة لما تدنيه للخارج بسبب موافقة ميزان الحساب له.

وكان تملك الذهب أمراً عريضاً يسير وفق حاجات التجارة والاقتصاد. فموضاً عن أن تكون الولايات المتحدة إذاً قسراً مقرضاً كبيراً—كما كانت الحال منذ عام ١٩١٤—اضطرتها الظروف إلى أن يكون حسابها مديناً سنوياً بمبلغ كبير. فهي لا تستورد الذهب بدافع من حاجتها إليه، أي مقابل ما تؤديه من خدمات وما تصدره من بضائع، ولكن بسبب الحالة السيولة التي حققت الأفراد الأجانب على استبدان ما في حوزتهم من ذهب بدولارات. وهكذا غدت لديها ثروة نسبة لتضع لها، ثروة قيسها في المستقبل يكتشفها الشك. وليس أدل على ذلك من أن صحافياً أميركياً كان قد سأل المستر نورمان محافظ بنك أمكترن عما إذا كان يأمل في عودة الذهب من الولايات المتحدة فأجاب إجابة ذات منزى عظيم: «قد عطينا ما فيه الكفاية من الذهب لاستخراجه من الأرض».

فواردات الولايات المتحدة إذاً من الذهب في الزمن الأخير لا ترجع إلى رجحان كفة الميزان الحسابي ولا ترجع بصفة خاصة إلى مدفوعات تؤديها الدول الأخرى نظير قروض أقرضتها الولايات المتحدة لها.

والوارد من الذهب إليها يمثل في الواقع ديوناً عليها كما سيتبين فيما بعد. وهي تستورده لا ببعض إرادتها ولكن وفقاً لإرادة البائمين الأجانب.

٤—(أثر تقلل الأحوال السياسية على التجاء الذهب ورؤوس الأموال لأميركا)—الخوف في الواقع هو الذي حفز الدول الأخرى على الانبال على تصدير الذهب إلى الولايات المتحدة يد أن هذا وحده لا يكفي لتعليل تدفق الذهب إلى هذه البلاد، فلو صاحب حركة تدفق الذهب تعديل في مستوى الأمان لاستمع التدفق أو على الأقل خفت حدته. والواقع كان تعيين الولايات المتحدة سراً ثابتاً للذهب سبباً في إبطال تأثير العوامل الاقتصادية المصححة التي كانت تعمل في الماضي على إعادة التوازن بين القوى الاقتصادية المختلفة فعد ما كانت العملات مرتبطة بالذهب سرطان ما كان تأثير التوزيع الدولي للذهب يحد سدهاء في البلاد الأخرى فترفع الأمان

أو تتخضع تبعاً للاجواء ولهذا تأثيره على حركات التجارة الدولية، وبالتالي تصحيح حركات الذهب وتعديلها تمديلاً يتفق مع مطالب التجارة الدولية لكل دولة. وهكذا لم تكن ثمة دولة تحوز من الذهب قدرًا أكثر من حاجتها.

وفي نظام معيار الذهب الدولي إذا ما زاد الأقبال على الدولارات والاستعانة بها من الذهب فانه يتبع هذا جحوظ الأثمان في الدول التي آتى منها الذهب وهبوط قوة الدولار الشرائية داخل الولايات المتحدة أي ارتفاع أثمان السلع منها فينتجم عن هذا تقييد تجارة المصادرات إلى أن يتوقف ورود الذهب. بيد أن الحال يختلف في الوقت الحاضر عما كانت عليه في ظل النظام السابق الذكر. فنظام معيار الذهب لم يعد له وجود اللهم إلا في الولايات المتحدة بل لا يرجد فيها سوى مظهره الخارجي ما دام الذهب في بقية أنحاء العالم قد برز بترأساً عن هيكل الأثمان. وكان من جراء هذا العالم لمعيار الذهب أن أصبحت حركاته وليست لها تأثيراتها السابقة وبطلت وظيفة المدن كنظم للعلاقات الاقتصادية الدولية. وهكذا إذا ما تدفق الذهب على بلد ما فلن يؤثر في اقتصاده القومي تأثيره السابق، ولن يحد هذا التدفق ما يعترض سيده.

وكان طبيعياً أن يسيل الذهب الوارد على رفع مستوى الأسعار داخل الولايات المتحدة لو ظل الذهب العملة الدولية، بيد أن ما حدث يخالف هذا إذا لم يكن للذهب تأثير ما على مستوى الأسعار مثله في ذلك مثل أي سلة أخرى. ولقد صاحب جحوظ سعر الصرف — نتيجة للذهب الوارد — اتجاه المصادرات الأميركية إلى الارتفاع بنسبة أعظم من واردات البضائع والخدمات ويرد هذا إلى أن تعديل سعر الصرف يحمل من الأسهل الشراء من الولايات المتحدة وأعظم صعوبة للأميركيين الشراء من الخارج. وهذا هو عكس النتيجة التي يتوصل إليها في نظام معيار الذهب الدولي الذي كانت واردات الذهب فيه يصحبها عادة تعديل في مستوى الأسعار يحدث هبوطاً في معدل المصادرات عن معدل الواردات في البلد الذي يتدفق الذهب إليه. وعلى هذا ليس ثمة اليوم عوامل تحد من تدفق الذهب لحسب، بل إن ثمة عوامل تزيد نشاط هذا التدفق وتقويه.

ولقد دأبت بعض الأنظار بين ألمانيا وإيطاليا قبل هذه الحرب على تقويم الوارد بأعلى من المصادرات وعلى اعتبار المصادرات السيل الفرد لتزويدها بما تحتاج إليه من السلع المستوردة. وهذا في الواقع أثر من آثار الاستعداد للحرب والتيه لها اقتصادياً. ومن ثم كان شراء الذهب عند هذه الأنظار عملاً غير مجرب. بل تراها ترسل ذهبها إلى الولايات المتحدة لتعزيز أمن حصولها على المواد الأولية وليكون الثمن المتحصل من بيع ذهبها ومصادراتها مائلاً في مدتها بالمواد الخام اللازمة لها في استعدادها للحرب. ولما كان الذهب لم يعد أساساً للتدقيق فقد غدا وجوده فيها غير

لازم لها بالمرّة وأصبحت عملية شرائه عند هذه الدول عبئاً على خزائنها لا مبرر لها . وهكذا قوى ميلها الى التخلص من ذهبها وافتدى بها كثير من الحكومات الأخرى فأصبحت هي الأخرى تنجس نحواً انداس احتياطيها الذهبي أكثر من اتجاهها نحو المزيد . وهذا التحليل يفودنا الى الفكرة الآتية ، وهي أن الاستعداد للحرب والتهيق لها قد جبراً الى أن أصبحت الدول تميل الى رفع قيمة صرف عملاتها بالنسبة للدولار لتسهيل كورود البضائع الأميركية اليها لاسباب المواد الأولية ضالتها المنشودة

نخلص مما تقدم الى القول بأنه لا يمكن انتظار وضع الحكومات الأخرى عقبات أمام حركة تدفق الذهب الى الولايات المتحدة كما لا يتوقع ضعف هذه الحركة الى أن تستوعب مخزون العالم من المعدن الأصفر فضلاً عن انتاج للتاجم

٥ — (تحديد سر ثابت للذهب وعلاقته بالتدقيق) في يناير سنة ١٩٣٤ صرحت وزارة خزانة الولايات المتحدة باستعدادها لشراء وبيع الذهب بسعر ثابت ٣٥ دولاراً لكل أوقية من الذهب العالمي ، وسناقش هنا ما توجب على فرض هذا السعر الثابت للذهب من آثار وما نتج عنه من شد أزور تزعج النجاء الذهب والأموال الى أميركا . ففي عام ١٩٣٣ خرجت الولايات المتحدة عن ميار الذهب . حالة فريدة في بابها ، بلده يخرج عن ميار الذهب في الوقت الذي يتوفر له حوالي نصف احتياطي العالم منه في ذلك الوقت . والسبب الذي دفع الولايات المتحدة الى الخروج عنه في عام ١٩٣٣ يرد في الواقع الى خشيتها منافسة بريطانيا العظمى السوق الدولية بعد ايفاقها شرط ميار الذهب في عام ١٩٣١ وما عقبه من تعزيز صادراتها . يد أنه يلاحظ أن بريطانيا العظمى قد عمدت الى هذا الاجراء بعد ما حدثت الحوادث وصيدها الذهبي ولا دخل للمنافسة التجارية فيه . هذا وقد قررت الولايات المتحدة العودة الى حظيرة الذهب في ٣١ يناير سنة ١٩٣٤ بعد تخفيضها قيمة الدولار بمحوالي ٦.٥٩٪ من قيمته السابقة وتطبيقاً لمبدأ الاحتفاظ بسعر ثابت للذهب لا يتمتع الولايات المتحدة عن شراء أية كمية تعرض عليها من المعدن ولا ترفض بيعه لمصدره . وهذا يجعل الولايات المتحدة عاجزة عن السيطرة على حركات الذهب . ومن ثم فإن محاولة الاشراف على أسعار الصرف تسير في الواقع عبئاً لاقادة نمحي من ورائه . فلو ارتأت السلطات النقدية الأميركية رفع قيمة صرف الدولار وبيع العملات الأجنبية لديها بالتالي فان في مكنة السلطات النقدية الأجنبية شل هذا الاجراء بواسطة الاقبال على شراء العملات المباعه بما يتحصل لها من دولارات ناجمة عن بيع الذهب للولايات المتحدة . وكذلك الحال لو زعمت السلطات النقدية في الولايات المتحدة في خفض قيمة صرف الدولار وشراء العملات الأجنبية في مكنة السلطات النقدية الأجنبية بإبطال بفعول هذا الاجراء

عن طريق زيادة إصدار أوراق البنكنوت وبها وتلك وسيلة مباشرة يمكن ممارستها إلى غير مآخذ. والواقع أنه قد ذهب الزمن الذي كان لسر الصرف فيه تأثير حاسم على حركات الذهب، ولو لم تمتد الولايات المتحدة إلى تعيين سعر ثابت للذهب لما بلغت ظاهرة الأموال اللاحقة إليها ما بلغت من قوة وعنف. ولكن نتيجة الالتجاء إلى الدولار رفع سعر صرف الدولار بالنسبة للمسلات اللاحقة إلى مستوى يحد من قوة التدفق.

وطالما أن الولايات المتحدة قد أخذت على عاتقها منح ٣٥ دولاراً لكل أوقية من الذهب تقدم إليها فإن تصدير الذهب إليها بشيء حقوقاً فيها للمصدرين الأجانب على الدولار الأمريكي. والعكس غير صحيح. بمعنى أن الولايات المتحدة لن يتوان لها استبدال الذهب بالمسلات الأجنبية الأخرى فلم تبد حكومة من الحكومات الأخرى استعدادها لتقبل الذهب بسعر معين. والعادة في غياب حركات الذهب — أن يكون تخلص الناس من عملة ما بدافع الخوف باعثاً على رخص هذه العملة، ومن ثم تندو عملية الالتجاء في صالح الدول الأخرى إذ تبيع بضائعها رخيصة إلى الدول الأخرى. وهذا الرخص يجر وراءه تدفق بضائعها تدفقاً قد يضر مرافقها الاقتصادية. وهكذا تحمل هذه العملية بين تناوبها جزاءها للانفراد والأقطار التي تحمل أموالها إلى الخارج من جهة والأقطار التي تقبل التجاء هذه الأموال إليها. وهذا التحليل لا يصدق الآن على الذهب فإن تصديره إلى الولايات المتحدة لا يحدث النتيجة السالفة الذكر. فالصندوق في هذه الحالة لا يبيعون الولايات المتحدة عملاتهم المحلية رخيصة ولكنهم في الواقع يشترون بسعر ثابت عملة نقدية أميركية ويدفعون في هذا الشراء الذهب الذي لم يعد يعد جزءاً من عملاتهم والذي عليهم وحدهم تتوقف مسألة استرجاعهم له من عدمه.

فهل كانت أميركا على حق في إعادة ربط عملتها بالذهب في عام ١٩٣٤ في الوقت الذي هجرت فيه البلاد الأخرى قاعدة الذهب. وهل كان من سداد الرأي في وقت أصبح العالم فيه عنائاً عن قاعدة الذهب أن تظل الولايات المتحدة متبعة هذا النظام وأن تبدي استعدادها لشراء كل ما يمرض منه بسعر عال جداً؟ يرى بعض الباحثين أنه يوجد في الوقت الحاضر سوء توازن خطير بين نفقة إنتاج الذهب الواطئة وبين سعر بيعه العالي. ومن رأيهم أن هذا السوء من شأنه استمرار حالة انسياق الذهب إلى أميركا. فلو لم تعين الولايات المتحدة سعراً ثابتاً للذهب لتيسر إنقاص سعر الذهب بالنسبة للدولار كما تطلبت الأحوال ذلك. أما الآن فإن القيام بهذا الأمر بعد أن استمر هذا السعر رديحاً من الزمن وتواصلت جذوره في الحياة الاقتصادية يكلف الولايات المتحدة والعالم ثمناً فادحاً.

ومن تعهيد الحاصل القول بتحويل الذهب إلى دولارات حلاً للموقف طالما أن سعر

الذهب في الخارج بالدولارات لن يمدى سعره الحالي إلا بارتكاب أحد أمرين أحدهما من زيادة سعر الذهب أو إبطال حرية تصدير المعدن . فإن أي حركة في أسعار الصرف سينجم عنها وبغير تماثل في سعر الذهب بالسلات الأجنبية وتحويل الذهب إلى دولارات يحدث نتيجة الطبيعة أي التضخم النقدي وما ينبع من هبوط قيمة الدولار الحقيقية (أي قوته الشرائية) وما أن الذهب مرتبط بالدولار ويقوم به لتوسط قيمته الحقيقية كذلك بنفس النسبة . وإذا ما امتنعت الولايات المتحدة عن شراء الذهب أقامت قيمته بالنسبة للدولار قد تذهب في هبوطها إلى حد أبعد من هبوطه وبمركز هذا الرأي ما يجنيه حامل الأوراق المالية المقومة بالدولار من ربح لا يتحقق له بحيازة الذهب . وهذه هي الحال التي عرضت للدول التي لديها الذهب فهي ترغب عنه لأسباب منها أن الدولار وسيلة للحصول على البضائع الأميركية التي هي في أمس الحاجة إليها ، ولأن ملكيتها لأوراق مالية مقومة بالدولار يظل لها دخلاً لن يتأتى لها باستحواذها على الذهب فضلاً عن أن تخزين الذهب يكلفها نفقات كبيرة كما تتعرض لفقد في حالة اجتياح العدو أراضيها كما حدث لفرنسا وهولندا وبلجيكا والنرويج . الخ

والواقع أنه إذا كانت دول أوروبا — خاصة — تحرص على الاستحواذ على الذهب فلا بد وسيلة للحصول على الدولار عن طريق بيعه بسعر ٣٥ دولار للأوقية السعر الذي حددته ٦ — (مسألة العودة إلى معيار الذهب) من الواضح أن مسألة العودة إلى نظام معيار الذهب الدولي أمرٌ بعيد جداً . وليست الأفكار خارج الولايات المتحدة مستعدة لتقبل هذا الإجراء كما أن الظروف والأحوال الحاضرة لا تتيح إمكان هذه العودة . فإذا كانت الأحوال العالمية في عام ١٩٣١ وما بعده قد انتضت الخروج على معيار الذهب فإن العالم يجتاز دوراً من أشد أدوار تاريخه خطورة وفرة أعظم شذوذاً من الفترة السابقة الذكر . وبعبارة أخرى فإن استئناف الذهب وظيفته في الحياة الاقتصادية أمرٌ يعتبر ضرباً من المستحيلات في ظل الظروف التي يتناها . وإن استمرار السباحة التي تجري عليها الولايات المتحدة اليوم من تعيين سعر ثابت لشراء الذهب يلقى على هذه البلاد عبثاً جسيماً يكلفها خرواباً جوالاً المليار ونصف المليار دولاراً . ولا يتوقع توقف الذهب عن التدفق إليها فإن سعر ٣٥ دولاراً للأوقية يشجع منتجيه على مواصلة زيادة الإنتاج . فإن شامت الولايات المتحدة التخلي عن هذا الموقف بالاتجاه إلى التضخم وبالتالي انقضاء السعر المحدد الثابت للذهب وترك المعدن يحدد قيمته العوامل الاقتصادية البحتة ، فسيؤثر هذا التخليص على البلاد المنتجة للذهب لأسباب الكبيرة منها . فهذا الإجراء يعتبر بمثابة كارثة تحمل بها ومحمّل جداً أن يكون لهذا الإجراء صدام على الاقتصاد القومي للولايات المتحدة نفسها فضلاً عن أن الذهب الباقي في أنحاء العالم سيعرج إليها انقضاء حدوث تخفيض جديد . ويعتطم إجراء

التخفيض باعتراض خطر جدًّا، فتخفيض دولار في سعر أوقية الذهب مئاة خسارة قيمتها ٤٣٠ مليون دولار من القيمة الاسمية في السوق المعخزون الذهبي الذي تملكه الولايات المتحدة اليوم. ولو ترك الذهب يصل إلى ٢٠.٩٧ دولار للأوقية (سعر دار الضرب القديم) — وليس هناك ما يمنع من الانحدار إلى أقل من هذا المستوى لو ترك وشأنه — بلغت خسارة الولايات المتحدة في مخزونها الذهبي الحالي حوالي ستة بلايين دولار، وهذه الخسارة تعادل ضعف الربح الذي حققته الولايات المتحدة عملية إعادة التكوين في عام ١٩٣٣ — ١٩٣٤. يبلغ الستة بلايين هذا كما يبدو أعظم من السبب الذي تتحمله الولايات المتحدة اليوم من جراء شراء الذهب (١ ١/٢ بليون دولار سنوياً). وتخفيض قيمة الذهب لن يتم إلا بزيادة نسبة غطاء الذهب في الدولار، إجراء يكون له أوخم المواقف على الاقتصاد الأمريكي. ففي سنة ١٩٣٧ زيدت نسبة الغطاء الذهبي بمقدار ٥٪ فأضر هذا بالمصدرين كثيراً فأذا يحدث لتجارة الصادر لو بلغت هذه النسبة بنحو ٤٠٪

٧ — (وظائف الذهب اليوم في الحياة الاقتصادية) الآن وقد استعرضنا مركز الذهب يدور بخلفنا السؤال الآتي عن وظيفة الذهب اليوم وعن الدور الذي يشغله في الحياة الاقتصادية في الوقت الحاضر. أما عن وظائفه القديمة المعروفة فلم يبقَ له شيء منها تقريباً. فلم يعد الذهب يستخدم مسكوكات أو سبائك تستعمل لغطاء للأوراق النقدية، وقد انهارت وظيفته كنظام لمرش التقيود. أما اتخاذ أداة لتسوية المدفوعات الدولية فقد ضل شأنها وغداً مصيرها إلى القضاء. فان حركات الذهب تتجه أنحاجاً واحداً وهي لا تحدث — كما كانت فيما مضى — لتسوية الالتزامات الدولية بل إنما اليوم تنبش في الواقع وسيلة لإنشاء التزامات جديدة كما تبيّننا في موضع سابق. فليس ثمة اليوم صادرات وواردات للمعدن تنظماً لمرش التقيود بل غداً المعدن وسيلة لتهريب رؤوس الأموال من بلد إلى بلد آخر بدافع الخوف والشك في مستقبله.

والواقع أن كان ثمة فائدة للمعدن اليوم فهي درء الربح على متبعيه ومكتنزي المعدن الذين يتعمقون اليوم بالسعر العالمي الذي تمنحه أميركا. أما عن اتخاذ الذهب كأساس لأرصدة تبيت الصرف فهذا ما أصبحت الدول المختلفة تسبده بالدولار.

وأخيراً يمكننا أن نقرر أن الدولار هو الذي يحدد اليوم قيمة الذهب لا العكس. ومن هذا يتبين أن ربط الدولار بالذهب هو في الواقع أمر ظاهر تماماً إذ لا يملك الذهب البتة التأثير على الدولار كما لو كانت الحال في نظام معيار الذهب الدولي.

٨ — (أثر الحرب الحاضرة على مستقبل الذهب) بدلت الحرب الحاضرة مظهر تدفق الذهب إلى الولايات المتحدة فبعد أن كان التدفق يتجلى في الاتجاه رؤوس الأموال إلى الولايات

المتحدة غداً تدفق الذهب إلى الولايات المتحدة إلى حد كبير نتيجة لاسمات تجارية بها وبين العالم . وكان من نتيجة فرض القيود الشديدة على خروج الأموال في البلاد التجارية والمهددة بالاعتداء في الحرب ، أن حدث كثيراً تدفق رؤوس الأموال إليها . ويقابل هذا من الجهة الأخرى أن الحكومة البريطانية قامت بتمويل عدد من صناعات الحرب في الولايات المتحدة واستتب هذا يدها أكثر من الأوراق المالية المقومة بالدولار فضلاً عن جانب كبير من ذهبها فيها . والواقع أنه بلغت مبيعات غير الأميركيين للأوراق المالية أميركية في أميركا في عام ١٩٤٠ . بلحق حقوق الوارد إليها من الأموال الجديدة في تلك السنة . وهذا يرد كما ذكرنا إلى استتاع الأموال الأوروبية عن أن تولي وجهها شطر الولايات المتحدة بسبب الرقابة على رؤوس الأموال من جهة والسيطرة الألمانية على الشطر الأكبر من الدول الأوروبية من الجهة الأخرى . ولولا هذا لظلم شأن تدفق الوارد من الذهب إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٤٠ أكثر مما كان عليه في عام ١٩٣٩ . ولما كان جل رؤوس الأموال الأجنبية الموجودة في الولايات المتحدة خاصاً ببلاد الحلفاء التي تستخدم في شراء المؤن منها ، فكل محاولة لرفع الائمان في أميركا ينجم رفع الأسعار في الأقطار المحاربة . وحتى لو لم يتم هذا فإن رفع الأسعار الأميركية لن يبعد الدول المحاربة عن استيراد البضائع الأميركية طالما أنها أداة لمواصلة الحرب

نخلص من ذلك إلى القول بأن العالم سيواجه بعد الحرب مشكلة للذهب شاذة في عتقها وحدتها ، ويبدو لنا أنه سيصبح من الصعوبة بمكان عظيم على أي نقد في العالم أن يتمكن من وضع قدمه أمام الدولار الأميركي وبجانبه . فالصناعة الأميركية سيفوق مركزها خلال هذه الحرب وبالتالي تندو وأعظم على المنافسة ، وسولي العالم المحارب وجهه شطر أميركا لمدة بما يحتاج إليه لإعادة الإيفاش إلى ربوعه ومدته بما يلزمه من ممدات السلم . وكلما طال أمد الحرب كلما عظمت خسارة أوروبا وكلما اشتد الطلب على ما تتيحه أميركا ، حتى تصبح معادلة موازين المدفوعات أمراً من الصعوبة بمكان . وأنه وإن كان استقرار أحوال العالم سينبع عودة كثير من رؤوس الأموال إلى أوروبا إلا أن هذا لن يتم قبل مرور بضعة أعوام على عقد الهدنة وتلك حالة تقتضف إلى التوامل التجارية البحت التي أسقطنا ذكرها الخاصة بشدة الطلب على السلع الأميركية عقب الحرب . ويجب أن لا نقرب عن بالنا الحقيقة الآتية : — وهي أنه من شأن استعادة التبادل حرته بعد الحرب التكاليف على طلب الدولار ، ومباشرة هذا يستعمل على تدفق هذا النقد من الذهب الذي ما زال خارج الولايات المتحدة . وعلى ذلك لا مناص للعالم بعد الحرب من تسيد حرية التبادل نسبياً في فترة الانتقال على الأقل . ولكن لما كان دفع نم الواردات المتطورة وغير المتطورة أمراً مرغوباً فيه ، فيحتمل جداً أن تستمر حركة تدفق

رأس المال في ظل شيء من التقييد . فإذا حدث هذا فلا مناص من اتجاه العالم نحو خلق كتل نقدية قد تكون كتلة الدولار ، وكتلة الاسترليني مثلاً . وتستجري العملات داخل نطاق كل كتلة حرة إلى حد كبير ولكن ليس بين الكتلتين . وذلك وحده كما يبدو حل المشكلة غير مرغوب فيه ولكن لا مفر منه إذا ما سارت الحال على هذا التواء

ولو حدث وتجمّع كل ذهب العالم في الولايات المتحدة ولو تقدم العالم إلى كتل نقدية وصحب هذا توازن العملات للمالية داخل كل كتلة نقدية وتباعدت العملات المالية بين بعض الكتل والبعض الآخر فهل يمين فقدان الذهب وظيفته كوسيط دولي للنقدية ؟ وهنا يدور بخلدنا سؤالان من الضروري الرد عليهما : الأول هل ستكون هناك حاجة ملحة إلى وسيط دولي للنقدية . وبالتالي هل سيظل الذهب المرشح الوحيد لهذا العمل ؟ من الصعوبة جداً تصوّر عالم — أو على الأقل عالم يوده قهراً الحلقاء — يمكنه الاستغناء عن وسيط للنقدية . وأنه من المستحيل فعلاً فرض إشراف تام على التبادل . وهيئة النازي على التبادل بما يضمه بين ثيابه من تمديد لا نهاية له ومع ما يفرضه من عقاب صارم لم ينجح رغماً عن هذا كله في إنشاء التوازن التام في إنشاء ألمانيا الخارجية . وبسبب أخرى لا يتنظر ولوج العالم هذا الباب وإقباله على هذا التبدل

وإذا كان لا بد من وجود وسيط دولي للأداء (نسوية المدفوعات) فهل يكون هو الذهب ؟ من الصعب تصور قيام شيء آخر غير الذهب بهذا الأمر . والواقع أننا إذا تكلمنا عن مشكلة الذهب إنما لنفي مشكلة الدولار . فليست مسألة تجمّع الذهب في الولايات المتحدة شيئاً خاصاً بالذهب وحده . فلو اتخذ صدف مثلاً وسيطاً في النسويات الدولية لأدّت الظروف الحالية إلى تجمّع أربعة أخماس صدف العالم في الولايات المتحدة الأمريكية . ورغماً عما يحمله نظام الذهب بين ثيابه من رزايا وما يهتق به من نقائص لا ريب فيها، فليس هناك بالتأكيد مادة أخرى غيره يمكن أن يعلوها العالم لأداء الديون دون أن تقام أمامها الرسوم الجمركية أو تحدّد قيمتها . أما القول بحمل الدولار نفسه يقوم بهام الذهب فلا يمكن أن يفهم القيل . فلا يمكن استخدام الدولارات لمواجهة عجز في الدولارات مثلاً . وفصلًا عن ذلك فإن هناك مصالح قوية لا يمكن التضحية من شأنها بها الاحتفاظ بنظام الذهب الذي تمتد قيمته كلية على استخدام وسيطاً في النقد . والولايات المتحدة لن تتجاهل هذا الأمر كما أن المستلزمات البريطانية وروسيا لا توافق على تخفيض قيمة مادة تعتبر أعظم منتج لها

وهنا يمكن من أمر ، فإن عصر ميار الذهب أي العلاقة بين كمية من الذهب ووحدة النقود قد انقضى . ونزل الذهب عن عرشه العظيم وفقد سلطانه المكين

الخطر الذي يهدد المدينة

هل تنتهي الحرب باقراضها ؟

لنقولا الحداد

ما هي المدينة التي نعني ؟

هي حياة الأمم جماء في طمانينة ، وفي الفردوس الذي ينشئه العلم ويوسمه على توالي الأيام هذا الفردوس في خطر عظيم من أقصى الفساد وشيطان الشر الذين أوغلا فيه وطفقا يقتلعان أشجاره ويلقحان أزهاره ، ويتلفان ثماره ، فإذا لم يضرب ملاك الخير بسيفه عنقها تركها خراباً ياباً . ومن يدري ان كان الله يفرس بعد ذلك فردوساً ثانياً ويجعل من زراية آدماء جديداً يعيش فيه عيشة راضية

وكان أنه لما أسس الناس في الشر لهد نوح أقام الله بطوفان ماء . قبل هو منضم الآن بطوفان نار ؟

ولما العلم الحديث بنشئ على سطح الكرة الأرضية برأ وجوهاً وبحراً فردوساً غصت الشجر ، بالغ الثمر ، ططر الزهر ، عذب الفرس ، ناعم الأديم ، وطب النسيم — هو النجم الذي كان يتوخاه عقل الانسان ويشاقفه قلبه وتطيب به نفسه ، فباله انقلب جحياً تجري من تحته أنهار من دم تمخر فيها من الدبابات أساطيل وزعم أهله عذابت سمائه بحجارة من سجيل . أكان العلم شيطاناً وحياً ؟ وكان معمله للناس جحياً ؟ كلا بل العلم ملاك كريم . وإنما قلب الانسان زعيم زيم . إذن أين مصدر الخطر على حنة المدينة الجديدة ؟

مصدر الخطر في قلب الانسان نفسه . أنه للفرقة مزدوجة — معرفة الخير ومعرفة الشر . فاختار معرفة الشر . جعل العلم الذي كانت رسالته منح المناعة للناس أداة للشر والشقاء . فالعلم الذي ألتأ الفردوس هو قسه الآن يدمر هذا الفردوس ، فليت آدم بقي عرياناً جاحلاً — ليت لم يثر على شجرة معرفة الخير والشر

مررت أمس بكبير مصارف (بنوك) العاصمة فرائته مدثراً بأكياس الرمل الى عقبة ، تحامياً لشظايا قنابل الطائرات . ثم مررت بميد فرائته عارياً من هذه الجماعة الرملية . ثم مررت بمهدراً فإذا هو محاط بسلسلة من تلك الأكياس . فقلت : يا لله ! هل صار المال أعز من الانسان وأغلى ؟ سبحان الله ! المال التير الحرب يخاف على نفسه من كوارث الحرب — أجل أن يحيل المال مهدد بالدمار شأن البيت البني على الرمل سريع الانهيار

أن هذه المدينة غنية بالاحتراعات ، ولكن قس احتراطاتها تحطم أدواتها . وغنية بالنزف والذخ ، والنزف والذخ يحدان أخلاقها حتى الموت . وغنية بالمال ، والله المال تختبئ السموات فنام مدنيته الكوارث والتكبات . وغنية بالعرفه ، والمعرفة ابتدعت آلات تدميرها . إذن هذه المدينة كاذبة لأنها تفرُّ الإنسان بالسعادة فلا يلبث أن يرى السعادة مراباً يسير صادياً في بحر من الشقاء أجاج الماء . أجل أن هذه المدينة مزيفة تحمل في أذيالها أسباب نكبتها
أَمْ كُنْشِي أَنَّهُ إله انه يكرمه أَعْلَمُهَا دَانِيَا ؟

هي الآن على مفرق طريقين عند تقاطعهما ، طريق الدكتاتورية . وطريق الديمقراطية . يتقاطعان الآن ثم يفترقان . وفي أحد الممرتين سلامة المدينة وفي الآخر قاتلها . ليست الدكتاتورية شرّاً على الإطلاق ، فقد تكون خيراً إذا كان الحاكم بأمره صالح الضير . ولا الديمقراطية خيراً على الإطلاق ، فقد تكون شرّاً إذا لعب فيها شيطان الوساوس وفخرها سوس الفساد . وإنما الدكتاتورية والديمقراطية رمزتان أو اسمان لنظامين يطلب في أولهما شر قلب الإنسان ويطلب في الأخرى صلاح قلب الجماعة . لسوء الحظ أن الدكتاتوريات الحالية مثله في قوس أشخاص يستولون لأنفسهم قوى الجماعة بدعوى الجهاد لحبر الجماعة ورفاهية الجماعة . وإنما هم بالحقيقة يضعون بهيمة الجماعة وسلام العالم على مذبح شهواتهم الشخصية

سل الألماني أو الإيطالي بأي نعيم كان ينعم في العشرين سنة المنصرمة ؟ أبلتقير المؤلم في قفائهم وبأسل الشاق في مصانع السلاح استعداداً للحرب ؟ وإلها من حرب تفقد فيها تلك الاستعدادات الدافقة ذخائماً إلى السماء ، وحطاماً في القضاء ، ومعها إشلاء الذين صنعوها . أهذا هو النعيم الذي كان الدكتاتور يمنحهم به ؟ وما هو ذلك النصر الذي كان يزرعهم به إذا كانت مقدماته ذاك الجهاد المضني في العمل وفي المعركة وفي المعركة ، وخواتيمه تلك الاشلاء المتطارة بين الأرض والسماء والديار المدمرة في البر ، والسفن المحطلة في البحر ؟

ولعلم كانوا يملكون النفس بنعيم أرض الجهاد التي كان موساهم يمنحهم بها حين يتفانون في القتال على أمل النصر . أفبعد أن ينقضي شبابهم في الاستعداد وبقى شبابهم في الجهاد يقتلون ؟ عشرون سنة مضت وهم يشقون ، فوهم ربحوا الحرب ، فمن يبقى منهم لكي ينعم بشانها ؟ وماذا يبقى من نعيم ؟ يسيرون بعد هذا الجهاد الشيف أنهم غنوا جراباً ياباً ، وأن النعيم الذي دنسوا نعمة عملاً شاقاً وأرواحاً غالية لم يكن الأسراباً . هذه هي رحلة الدكتاتورية : من الوعود إلى الحيات ! وماذا يرحى غير هذه الحيات إذا كان الحاكم بأمره بعد ضحاك شعبه بالرفاهية على حساب نهم شعوب أخرى . والشعوب الأخرى ليست أضف بأساً ولا هي أقل اعتصاماً بمجمل الحياة .

يستمعوا بنجاح عملهم ، بل لكي يبرزوا السلاح الأفاني الذي يستعمل لاستعبادهم . ومن ثم إنهم
 الذين يتلصقون بالأمم الأخرى ثم تنقرض ، كما انقرضت الوحوش أمام قوة الإنسان ، وتختفي
 سلاح تلك الأرواح لكي تملأه سلالة الألمان . وهكذا تصيح بقاع الأرض في أقاليمها الأربعة
 ملك أمة واحدة فقط . ولكن أية أمة ؟ — أمة أرقاء تتحكم بها شرذمة من الزعماء الطغاة
 ردحاً من الزمن إلى أن يدب الشقاق بين هؤلاء الزعماء فيختصمون إلى أن يقتنعوا ذلك التراث القبيح
 العلمي وأموال السلالة البشرية الجرمية الدم بمجموعة أمة في مجموعة ممالك . ولا تلبث أن تتدأ ولها
 الحروب وتبيدها الممالك وربما بقيت خثالة في زنوج مجاهل أفريقيا لسيها الدمار لأنها بلا وطن
 ولا دار . ومن يدري إن كان هؤلاء القضاة من الإنسان يستطيعون أن يأنقوا الحضارة
 وينشئوا مدينة جديدة في آلاف القرون ، أو أنهم ينقرضون أيضاً ولا يبقى أخيراً من يرث
 ملكوت الإنسان إلا الضواري والحشرات . ويتجه فعل سنة النشوء والارتقاء اتجاه آخر
 لا يملك إلا علام القيوب . هذه عاقبة الفرض الخال الذي فرضناه آنفاً وأني به انتصار هذين
 الدكتاتورين الجهنميين على الديمقراطية الحققة

وإذا كانت نهاية هذه الحرب اندحار الحضارة وانهايار التكنولوجيا كما هو إيمان جميع الأمم
 الراغبة في السلام فالأمر الذي لا ريب فيه أن السلالة البشرية ستخرج منها خروج المريض
 للصاب بحسب خيئة ، شهوكة القوى مضغمة الوجدان تستغرق نقابها مدة طويلة من الزمان
 من ظله السبب ؟

ولعل القراء يتساءلون عن هو الجانب الأصيل في هذا الجنون الاجتماعي الويل الذي
 حطم فيه الإنسان معالم مدنيته ودمر به جميع أسباب رفاهيته من غير أن يحسب حساب ربحه
 أو خسارته في هذه المناورات التي لا يمكن أن يكون الحظ فيها إلا نصراً
 قالوا : السبب هو معاهدة فرساي . وعندني أن معاهدة فرساي لم تكن شيئاً حقيقياً البتة .
 بل كانت حجة لطافة الألمان ينددون بها لغزو الآساية . وإذا كانت معاهدة فرساي السبب
 الحقيقي فاشأان نروج وندمرك وهولاندا وبلجيكا في هذا النزاع ؟

لو لم تكن معاهدة فرساي قد وجدت في حوادث التاريخ لاخلاق الألمان شيئاً آخر لنزوا
 الآساية كما اختلفوا السبب في الحرب الماضية . ولم يكن ثمة من سبب لها غير رغبة طغاة الألمان
 ولا سبب العسكريين منهم في اجتياح العالم لكي يؤسسوا إمبراطورية السورمان الجرماني .
 قريب هذه الثورة الجرمانية الجنوبية هو افلام بعض مفكرهم المروج وأخصهم نيتشه الذي
 طلع على العالم مبدأ اجتماعي سلبط ينفذ أركان الاجتماع ويقوضها إلى الأساس ، وهو تمجيد
 القوة ومحى الضعيف . وبعبارة أوضح هو تمجيد « تليق سنة التنازع الحيوانية على الحياة

الاجتماعية في حين ان هذه السنة تتلشى رويداً بلعم سنة التنازع والتضامن الانسانية التي هي
أساس الاجتماع . ولولاها لما كان اجتماع انساني ، ولا امتاز الانسان على الحيوان بشيء .

نسمم الجزيرة الألمانية باسم السوبرمانيه

فبدأ فلسفة بنشه ومن جاروه لا يختلف عن مبدأ التنازع الحيواني الآ بأن العامل فيه
العقل المنكر المختار لا العريضة المسيرة . ولذلك هو أقطع شراً من التنازع الحيواني . وسلوك
الألمانين الوحشي في هذه الحرب هو أوضح برهان — لاراحة ولاعطف ولا رفيق بل جبروت
وقسوة وتفتيح لاحد له ، تفتيح لا تأتيه الضواري

هذه الفلسفة البنشية التي اتفق بها غليوم قبل هتلر ونسب بها لظلمه العسكري رقباده
وجنوده حتى أخرجهم غرورهم من تحت سلطة القانون المدني بحيث يباح للجندي ان يقتول
أية جريمة لأن النظام العسكري بحبه من المقبولة هي السبب الأساسي . ولذلك كانت القوة
المسكينة الألمانية منذ عهد غليوم دائمة الشوق الى الحرب تتحين أية فرصة لحوض غمارها

وكان هتلر وصحبه أكثر تسماء هذه الفلسفة . فجاءت النازية مرض هذا التسمم الذي تفتى
في الأمة الجرمانية بأسرها الآ في جانب من عقلها وعلمائها وحكامها الذين أصبحوا لدى هذا الزمان
النازي بلا حول ولا طول . ذلك هو السبب الأسيل لهذه الكارثة التي بليت بها الانسانية
فاضطرت جميع الامم ان تضعي براحتها وهاتها وسلامها في سبيل الاحتياطات الغالية لاحتوائها
وتفادرك نتائجها « الدمارية » . فالظركم هو تأثير تفكير المفكرين في التظم الاجتماعية . وقرآن
رسالات الانبياء والرسائل الاقدمين بمبادئ شذاذ المفكرين والفلاسفة المتأخرين

مثل هذه المبادئ العنجه والفسافات الهوجاء تخلق عذراً لتحديد حرية المفكرين والخطباء
والمحربين ، ولاسيما لأن العامة ضفاف الحكم تصار النظر ضيقو التفكير . تتلاعب بمقولمهم أهواء
الكتاب والخطباء كما تتلاعب الرياح بخفاف الريش والمياه . تخلق باهل التفكير والتجوير ان
يرسوا بابصارهم الى الاهداف التي تصيبها افكارهم وآراؤهم في التظم الاجتماعية

القاعدة الأساسية لفلسفة الاجتماعية في اصطلاح الآراء التي يراد بها ارشاد الجماهير هي
ان يكون الهدف الاخير لكل رأي وفكر ادبي وخلفي واجتماعي تشكيل الجماعة وضم الجماعات
ورابطها برابط المصالح الاجتماعية الحققة العادلة ، لا التفريق بين الافراد والامم بتسييد العمميات
الجنسية والتمرات الوطنية . ان تمجيد الجنس والوطن كان منذ القديم والى اليوم سبب تنازع
الامم وحروبها . والآن وقد أصبحت الامم على اتصال سريع فيما بينها صار في الامكان ملائمة
العصية الجنسية في « الانسانية العليا » واقفاء « الوطنية » في « الاممية العامة »

تلقفكر قادة الامم المفكرون في هذه القاعدة الانسانية قبل ان يسكوا الافلام ويقفوا على التنازع

باب المراسلة والمناسبة

حول عقيدة استنجلر

صديقي الفاضل محرر المقتطف : اطلعت في مقتطف يوليو على ما كتبه الاستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي ، ردًا على كلتي في مقتطف ايريل ، وأرجو ان يتبع صدر المقتطف لنشر الكلمة الآتية أميناً على ما كتبه الاستاذ وتوفية للبحث واستجلاء للحقيقة المصدر الوحيد الذي اعتمدت عليه في تقرير يهودية استنجلر هو الفقرة الواردة في المقدمة التي كتبها رينارد كالرجي لكتاب آية الكون هنري كالرجي كما سبق أن اوضحت ذلك ، ورينارد كالرجي من أسرة نمساوية عريقة ، والمقال الذي عرض كتاب الكون كالرجي كتب بالالمانية ونشر في جريدة نمساوية وزجته بعد ذلك بحلة المصراحي الاميركية ، وبدعي ان ترجمة المقال من الالمانية الى الانجليزية لا تجرد من الجنبية الالمانية أو النمساوية ولا يحل انجليزية أو اميركية أو يهودية ، فالصدر الذي اعتمدت عليه اذا ليس انجليزية ولا اميركية ولا يهودية كما زعم الاستاذ وانما هو مصدر نمساوي ونمساوي صميم لا غبار على نماسيته ، وسبيل انشاف هذا المصدر أو التشكيك في صحته إما أن تكون باظهار الخطأ في ترجمة الفقرة وإثبات أن اسم استنجلر أقيم فيها اتحافاً وذلك بالرجوع الى الكتاب نفسه الذي وضع الكون هنري ، أو بتقص ما ذهب اليه رينارد كالرجي ، ورينارد كالرجي شخصية نمساوية بارزة ومؤلف محترم المكانة غائب الرأي الساني النزعة ، وأظن انه من المستحسن أن رد كلامه ونقبي رأيه برأي رجل آخر يماذله في المكانة الأدبية والسمة الفكرية أو يفوقه ، وأصارع الاستاذ الحسيني وحضرات القراء أي عند ما راجعتني حضراته في يهودية استنجلر تدرب الي الشك لاني كنت أحب نفسي ان أكون قد اعتمدت في ذكر يهوديته على مصادر عدة — لا على مصدر واحد — شأني في تحقيق أكثر ما أكتب — وذلك مع تقديري لصوبة الحصول على المراجع في مثل هذه المسألة الدقيقة لان أكثر الكتاب اليهود يفضلون الاشارة الى يهوديتهم ، والكثيرون ممن يكتبون عنهم لا يمتنعون بهذه الناحية ، وقد وجدت أن يكون عند الاستاذ الحسيني الخبر اليقين الذي يقطع الشك ، والحجة الدامغة التي تجلو الحق ، ولكن الاستاذ لم يحقق أميني . فالاستاذ متلاً يستدل على ان استنجلر ليس يهودياً بأن حضرات زملائه اساتذة الجامعة الذين طاشوا في الالمانيا سنين ومخرجوا في ساعدها أنكروا ذلك . ولست أطيل مناقشة هذه الحجة ، ويظهر أي حاجة الى بعض البساطة المقدمة لأسفها ، وحاول الاستاذ كذلك التشكيك في يهوديته لانه « عاش في الالمانيا في زمن بلغ اضطهاد اليهود فيه ذروته ولم يحقق لهم جناح الرحمة » . كأنه كان

يريد من اشتنجلر ان يمد قنبل دور موسى التكميم ويحدي فرعون النصر الحاضر ويتودد يهود ألمانيا الى ارض الميعاد ليثبت يهوديته ، وأنا اعرف ان الأستاذ الحسيني يدعي لاشتنجلر «قوة البصيرة ودقة التفكير» . ولم اعرف بعد انه يزودني البطولة وحب التضحية ولا استفادة قذا كان يمد فيه هذه نقاب الغالية والصفات الحيدة فليتول حيا به لتقاعده عن نصرة قومه وهو على أي حال ليس اوز ولا آخر من آثار الدافية وطلب السلامة وسار في ركاب الاقوياء ، والأستاذ الحسيني نفسه قد وصف اشتنجلر بأنه من دعاة « البروسية » وأنتال هؤلاء الدعاة يجذون مظاهر الجفوة والحسونة والاضطهاد والفسوة ، والريحة عندهم خوراً في الطبيعة

وقد كانت العبارة التي اختارها الأستاذ الحسيني للتصير عن رأيه في نفي اليهودية عن اشتنجلر في كتبه الأولى تحظر الانسان الى ان يفهم انه ينتقص العقيدة اليهودية وقد استصوبت في الرد على ذلك ان اذكره بالفيلسوف اليهودي العظيم باروخ اسبنوزا فاستخلص الأستاذ من ذلك اني اعتمد بأن هناك تقارباً بينهما في التفكير وأخذ يرشدني الى ما بينهما من خلاف وقد ألح الأستاذ نفسه قائلاً لم اكن أجعل ما قاله وأشكر له على أي حال تحريره

ويرى الأستاذ ان بعض المفكرين ينكر تأثير اسبنوزا في جيني كبير شعراء الألمان ، وقد رجعت فيها ذكرته عن تأثره باسبنوزا الى نصوص واردة في كتابات ريشان وماتيو ارند وادوارد كيرد وجورج سانتاينا ورييه برتلو ووليم شيرر ووليم جيرولم ودارلد هفدنج ووندلاند . لجورج سانتاينا يقول مثلاً « حقيقة كان جيني طوال حياته تلميذاً لاسبنوزا^(١) » والأستاذ جيرولم يقول « كتاب الأخلاق لاسبنوزا اثر تأثيراً عميقاً في هررد وجيني وشلنج وهغل^(٢) » ووندلاند يقول في صفحة ٥٩٧ من الترجمة الانجليزية للكتاب القيم في تاريخ الفلسفة « لقد أثر اسبنوزا تأثيره القوي في عقول الناس لانه كان يرى الطبيعة — دون ان يستحي الانسان — وحدة متصلة مترابطة يتكشف فيها الوجود المقدس في تمام كماله وقد اقتبس جيني هذا التصور فأصبح له مغزلة حاسمة في نمو الفكر الألماني » وتحدث جيني نفسه في احدي رسائله عن اسبنوزا فقال « الرجل الذي أثر في تأثيراً قوياً والذي كان مقدراً ان يؤثر تأثيراً عميقاً في طريقة تفكيري جميعها هو اسبنوزا^(٣) »

ويرى الأستاذ الحسيني ان فلسفة اسبنوزا تعد الى مدى كبير صدى الفلسفة العربية الاسلامية « وكنت احب ان يكون الأستاذ اكثر دقة من ذلك فان استعمال لفظة « صدى » هنا لا تخلو من استهجان لفيلسوف سامي الشأن مثل اسبنوزا ، وهي تقلل من طرافته التي اعترف بها كبار مؤرخي الفلسفة ، وقد تأثر اسبنوزا^(٤) بالأدب العربية ودراسة التلمود والحلالم على مؤلفات علماء اليهود

(١) راجع صفحة ١٣٩ من كتاب سانتاينا Three Philosophical Poets (٢) راجع صفحة ٢٥٠

من كتاب جيرولم Introduction to Philosophy (٣) راجع صفحة ١٧٦ من كتاب لويز

The Life & Works of Goethe (٤) راجع صفحة ٥٢٨ من كتاب روبرت هانت



(١) الملكة جيلين ملكة رومانيا الوالدة (٢) الملكة البرازيل اليونانية (٣) الاميرة اطورة
 زيتا (٤) الملكة جورجينا ملكة البانيا (٥) الملكة فكتوريا ملكة اسبانيا السابقة (٦) الملكة
 تريا ملكة افغانستان السابقة (٧) الاميرة اطورة هريين الزوجة الثانية لطليم الثاني (٨) الملكة
 اميليا البرلمانية (٩) الملكة رومانيا يانوي ملكة صام السابقة

باب أخبار العائلة

ملكات منفيات

لأبراهيم موسى

الروماني عام ١٩٢١ ، ولكن زوجها نزل عن
حقه في العرش في عام ١٩٢٥ وهجر بلاده
وذهب الى فرنسا مع خليلته مدام لوبيكو ،
ثم طرد عن رأيه ورجع الى بلاده وترجع الملكة
من ابنه ، وأصبح الأخير ولياً للعهد بعد ان
كان ملكاً ثم نشب خلاف بين كارول وهيلين
فحدث الطلاق المعروف ، واعتزلت الملكة
العالم في فلورنسة بإيطاليا ، وكانت تقابل ابنها
الأمير ميشل مرة كل عام ، ثم حدث انقلاب
الحرس الحديدي المعروف وتولى الجنرال
انطوليكو الحكم ، وعادت الأم الى جانب
ابنها رعاها بينما وتكلم برطانيا بعد ان قضت
سنوات كانت لا ترى فيها ابنها وأرض وطنها
الا مرة كل عام .

أغرب ملكة منفية

وأغرب ملكة منفية في هذا الوجود هي الزمات
اليونانية ، كانت زوجة لجورج الثاني فطلقت
منه . ولدت في عام ١٨٩٤ ، وهي ابنة الملك
فردناند الروماني (شقيقة كارول) ، لم تتول
الملك الا ١٤ شهراً ، ثم خلع زوجها في عام
١٩٢٣ ، وفي المنفى فترت العلاقات بينها وبين
زوجها ، ثم دعي الأخير مرة ثانية الى العرش

من الحقائق الأليمة في هذا العالم القريب
الأنوار ، الكثير المفاجآت والتحولات ، ان
عدد الملوك الخلعين عن العرش ، المتقين من
أوطانهم ، أصبح بعد الحربين الماضية والحالية
أكبر من عدد الملوك الذين ما زالوا يترسمون
على العرش ويتولون مقاليد الحكم في بلادهم
وفي العالم ملكات كثيرات ، كن زينة
الملك والديجان والعرش ، فضاء ملكن ،
وقد يكون ذلك الى حين ، وقد يكون الى
الأبد ، ولكنهن صارت على عتبن ، يقضين
أوقتهن في كتابة المذكرات او املائها ، او في
مرافقة أزواجهن في الباحة والسبد ، او
ينظرن الحفلات ويبحثن الألسار ليوم سوعود
يوم تقوى شوكة أحزابهن وأحزاب أزواجهن
في أوطانهم فيطلبون اعادة العروش المطلوبة
اليهم . والعالم كله في أماني وأحلام ، فلماذا
لا يجنن النفس بالأمانى ولم لا يعش بالآمال
والأحلام ١٢

ملكة رومانيا الوالدة

وها هي ذي هيلين ملكة رومانيا (الوالدة)
ولدت في عام ١٨٩٦ ، وهي ابنة الملك قسطنطين
ملك اليونان السابق ، تزوجت الرئيس كارول



(١) الملكة هيلين ملكة رومانيا والدة (٢) الملكة العراقة اليونانية (٣) الامبراطورة
 زينا (٤) الملكة جيرالدين ملكة البانيا (٥) الملكة سكوتلندا ملكة البانيا السابقة (٦) الملكة
 زينا ملكة افغانستان السابقة (٧) الامبراطورة مريمين الزوجة الثانية لطيرم الثاني (٨) الملكة
 اميكا البرتغالية (٩) الملكة رانيا ياروني ملكة بياض السابقة

عام ١٩٣٧ فقدمت الى الملك زوجو فهام بها حبساً من النظرة الأولى، وخطبها وزوجها في عام ١٩٣٨ وكان الكونت شيانو من شهود الزواج، وما كان ماضي عام حتى كان الكونت وحده موصولاً سياً في هدم صرح المناء الذي كان الملك زوجو والملكة جيرالدين يعيشان فيه، إذ غزت إيطاليا البانيا وخربتها بالقنابل من البر والجو بدون مسوغ إلا الجشع، فاضطرت الملكة الى الفرار مع طفلها الوليد حتى لا تقع أسيرة في أيدي النازية، وهي تعيش وملكها في مكان ما بانكلترا على السالب وقد يأتي يوم تعود فيه الى ملكها بعد انتصار الحلفاء

ملكة ألبانيا السابقة

وهذه هي نكتوريا ملكة ألبانيا السابقة ولدت في قصر بالمورال عام ١٨٨٧، فهي جديدة الملكة نكتوريا، تزوجت الملك الفونسو الثالث عشر الإسباني عام ١٩٠٦، وأحييت من أطفال مات اثنان منهم في حوادث السيارات ثم طلقت من زوجها وها يعيشان منفصلين، وقد فقدت ملكها بعد ٢٧ عاماً، وقامت حركة الجنرال فرانكو فأملت هي وزوجها خيراً، ثم ظهر ان فرانكو لم يقامر بنفسه ليجعل على رأس ألبانيا ملكاً أو رئيساً غير نفسه. وقد توفي الملك الفونسو من عهد غير بعيد في إيطاليا

ملكة أفغانستان

أما تريزا ملكة أفغانستان السابقة وزوجة أمان الله خان، فكانت كريمة لمحمود زارزي

ولكنهما طلاقاً، واليوم... هل تدرك ثم تعيش هذه الملكة السابقة؟

يقال إنها تدير متجراً لأنواع «البقالة» في بخارست مسقط رأسها، ومتجرها قريب من القصر الملكي، ولا ندري هل صادر الألمان ما في متجرها بعد الاحتلال أم تركوه. فما أعرب حوادث الزمن وما أعجب تقلبات الدهر

الامبراطورة زينا

والامبراطورة زينا، امبراطورة النمسا وملكة المجر، كانت تتحكم في ربوع أوروبا الوسطى كلها، وكان رعاياها يحولونها ويوقرونها، من تشك الى بحر الى سلاف الى نموسيين. ولدت في عام ١٨٩٢، وهي ابنة الرئيس الايطالي بوربون بارما، ثم تزوجت الرئيس شارلس هابسبورج عام ١٩١١، وبعد سنوات أصبح زوجها امبراطوراً، واسكنه لم يكذب يقضي في الملك ستين حتى هزمت النمسا مع ألمانيا في الحرب الماضية، ونفخ من بلاده يهم على وجهه في أوروبا، ثم مات عنها، وانقطعت أبنائها بعد نشوب الحرب الحاضرة فلا يعرف العالم من أمرها شيئاً

ملكة البانيا

أما خيرالدين ملكة البانيا، فولدت عام ١٩١٧ في بودابست، وهي بحرية الأصل أبوها الكونت أبتوني، كان من النبلاء ولكنّه لم يكن من الأثرياء، زارت تيرانا عاصمة البانيا

أصبح ملكاً بعد ذلك ، ولكن ابنها وزوجها تولا غيلة في لشبونة عام ١٩٠٨ تولى ابنها الأمير مائيرل العرش ولكنه خلع بعد قليل ، وكانت تعيش في فرنسا منفية عن بلادها قبل سقوط فرنسا ، فتقضي أغلب أوقاتها في أعمال البر وأخير ، وهي في الصليب الأحمر الدولي اليوم ، عسى أن نجد في عمل البر والخير عزاء لها بعد أن نكها العرش في زوجها وابنها

ملكة سيام السابقة

وأخيراً نخدمك ايها القاريء الكريم عن ملكة سيام السابقة راما يارني ، توفت الملكة في عام ١٩٣٥ ، وفي أثناء حكمها زارت مع زوجها عواصم أوروبا ، وكانا في خلاف مستمر مع حكومتها فزل الملك عن العرش عام ١٩٣٥ ، وهما يعيشان في انكلترا وقد اشتهرا بأنهما مولمان بالرياضة وأسباب اللهو وبشاهدان كثيراً وهما يجران في شوارع المدن ، ويبدو أنهما يفضلان ملذات الحياة العادية على أبهة الملك ، ولا يدري المرء أينهما في فقد العرش أم يهتبا به ؟

وزير خارجية أفغانستان فأصبحت ملكة ، وأرادت أن تدخل مظاهر الحياة الأوروبية الحديثة على بلادها ففشلت ، وكان فشلها سبباً في سقوطها ، ولطردت هي وزوجها من الملك وسلبا عرشهما وتاجهما في عام ١٩٢٩ ، ويقال أنهما الآن في إيطاليا

سروجة عليزوم

وهذه هي الامبراطورة هرمن ، الزوجة الثانية لفلاديم الثاني امبراطور المانيا السابق ، شهدت من الجوع والعطش والجبروت ما لم يشهده أحد ، كان زوجها الاول هو البرنس شولناخ كارولات وقد توفي عنها في عام ١٩١٩ ، وأنجبت منه خمسة أطفال ، وهما هو ذا زوجها الثاني يموت من أسايح ، فقدت بذلك زوجين أحدهما أمير والثاني امبراطور ، وكل ذلك في اثنين وعشرين عاماً

ملكة البرتغال السابقة

وهذه هي الملكة إميليا البرتغالية ، ولدت في نويكنهام عام ١٨٦٥ وهي ابنة كونت دي باري تزوجت عام ١٨٨٦ من ولي عهد البرتغال ، وقد

فروع معهد ركنظر في اوربا

في لشبونة حاضرة البرتغال ومن أعمال فروع المعهد السيطرة أو السمي الى السيطرة على الملاريا على طريق بورما في العين الوطنية والسعي الى اعادة بعوض الحلي الصفراء في البرازيل وضع نصف مليون جرعة من لقاح الاقلوزا لترسل الى بريطانيا

لمعهد ركنظر الطبي فروع في مختلف انحاء العالم وغرض رجالها البحث العلمي في الأمراض الفتوطة ونجربها في شتى البلدان وقد اذاع الدكتور ركنظر فزديك رئيس المعهد ان جميع الفروع الاوربية انقلت ابوابها بسبب الحرب ولكن المعهد الشأ فرعاً مؤقتاً

كيف تجرد الشمس نشاطها

تستهلك الكربون ثم ينبعث بتفاعل العناصر

مضى على الشمس الوف الملايين من السنين وهي تنفق طاقتها ضوءاً وحرارة وأشعة أخرى . وما تشع كل ثانية من الطاقة يبدل أربعة ملايين طن من كتلتها . فكيف استطاعت أن تنضي الوف الملايين من السنين وهي تنفق هذا الإشعاع بغير أن تضجول ؟

من الحلول العلمية التي عرضت إجابة عن هذا السؤال حل عرضة الدكتور بيت Bethe أحد أساتذة جامعة كورنيل الأميركية ولها به أن الشمس تستنفد الكربون في الإشعاع ثم ينبعث بتفاعل العناصر في باطنها وتستعمله ثانية وثالثة وحلم جراً في دورة قامة قدرها بيت أولاً باثنين وخمسين مليوناً وخمس مائة وأربعين وخمسين ألفاً من السنين (٥٢٥٥٠٠٠٠٠) ثم صحح هذا الرقم بعد التجارب في معامل البحث الطبيعي . وقوام هذه الدورة الكربونية في الشمس ست مراحل تمكن بيت وغيره من علماء الطبيعة في أميركا وأنكلترا من تتبعها مرحلة مرحلة في المسجل الطبيعي . أي إن بيت وضع نظريته أولاً مستنداً إلى الرابطة العالية والطبيعة الكيميائية ثم حققت المراحل من حيث امكناها واستحالها في معامل البحث ثبت بعد ثلاث سنوات أنها ممكنة . وإليك المراحل الست : — أولاً — الأيدروجين المحتاج بفضل الحرارة العالية في باطن الشمس بهاجم الكربون .

ولا يخفى أن نواة ذرة الأيدروجين بروتون واحد فيعترق نواة ذرة الكربون المركبة من ستة بروتونات وستة نيوترونات (مجموعها ١٢) فيتحول الكربون بإضافة البروتون الجديد إلى نواة نتروجين (وزنه الذري ١٣)

ثانياً — يطلق النتروجين كبرياً موجياً يعود كربوناً ولكنه كبريون وزنه الذري ١٣ (أي أنه أحد نظائر الكربون)

ثالثاً — بهاجم الأيدروجين هذا الكربون (١٣) فيدخل بروتون الأيدروجين نواة الكربون فيحول نتروجيناً وزنه الذري ١٤ وهو النتروجين العادي

رابعاً — بهاجم الأيدروجين هذا النتروجين فيضف إلى نواته بروتوناً فيصبح أكسجيناً ذا وزن ذري (١٥) وهو أحد نظائر الأكسجين العادي

خامساً — هذا الأكسجين غير مستقر فيطلق كبرياً موجياً فيتحول نتروجيناً وزنه الذري ١٥ وهو نظير آخر للنتروجين العادي سادساً — بهجم الأيدروجين على هذا النتروجين فيحول إلى أكسجيناً عادياً . ولكن هذا الأكسجين لا يبقى في باطن الشمس على حاله فينشط شطرين أحدهما نواة هليوم والآخر نواة كربون وينتج الكربون تبدأ

الدورة ثانية

التي تشعها في الثانية تعدل ٤ ملايين طن من
النفط إذا تحولت أربعة ملايين طن بوسائنا
الفاصرة. ولدت هذه الطاقة. ونسكن الطبيعة
نستطيع توليدها من كتلة أقل كثيراً
ويرى الأستاذ يث إن ما في الشمس من
الايديروجين يكفي لإشعاعها مدى ١٢ ألف
مليون سنة أخرى

في أثناء هذا التحول الذي تفقد ذرات
الايديروجين لأولى التي حاجت الكربون
شيئاً قليلاً جداً من كتلتها فيتحول إلى طاقة.
ولكن هذا التحول غير مستطاع إلا في
أحواض من الحرارة العالية كأحواض باطن
الشمس. فالطاقة التي تشعها الشمس تولد من
مادة صغيرة الكتلة. وعندما نقول إن طاقتها

السلفانيلايد والصل

واليكسبرولوجين الأميركية إن النتائج التي
أفترت عنها مباحثهم في الأرباب الهندية تمت
على الأمل وتنتج على مواصلة البحث
وقد جروا في مباحثهم هذه على الطريقة
العلمية المألوفة فأخذوا قريباً من هذه الأرباب
وحققوا بالبرومين وفريقاً آخر أربابهم كأرباب
الفريق الأول عمراً وصحة وتركوه يبرحقن
ثم حقن أفراد الفريقين بما يحدث الدرر الرئوي
فيها فلم تصب أرباب الفريق الأول (المحقرون
بالبرومين) وعانت جميع أرباب الفريق الثاني
ولما كان الدرر في الأرباب الهندية يختلف
في سيرة عنه في الناس فقد حذر الأطباء
الباحثون شأن العلماء الحقيقيين من الاعتقاد
بأن فائدة البرومين في كفاح الدرر البشري
قد ثبتت. ولكن رجاءهم كبير في تحقيق ذلك

يطالع القراء في مقال المقطب الأول
هذا الشهر أبناء عجيبة عن فائدة العقاقير المشتقة
من عقار السلفانيلايد وفي طلبها إن عقار
السلفاجواندين فعال في القثك ياشلس
الديستازيا الباشلية وياشلس التقدود.
ولضيف هنا إلى ما أوردناه هناك أن طبيين
اميركيين استملا السلفانيلايد مسحوقاً
استعمالاً ناجحاً في حالات التهاب البريطون
ولاسيما الحالات التي تسبب عليه استئصال الزائدة

وأذاع ثلاثة أطباء اميركيين من معهد
مايو الطبي المشهور أنهم امتضوا عقاقير مشتقة
من السلفانيلايد دعوه برومين Promin في
مقاومة الدرر الرئوي (السل) وقال احدهم
في رسالة قلت في جبهة الباثولوجين

فيتامين B وحالات الأعصاب

الناس من الأصوات المزججة كأصوات القتال
وصفارات الانذار بالغازات الجوية وغيرها
وهذا الرأي مستخلص من بحث للعالم
باتون Patton (جامعة بتسبرج الأميركية)

إذا كان هناك وجوه شبه من الناجية
الفسيولوجية الخاصة بالأعصاب بين الجرذان
والناس ففيتامين B الموجود في الحبة والكبد
واللبن وجنين الحنطة يجب أن يقي أعصاب

المواد المعدنية غذاء

بعضها على بعض ويمنحها قطع الصوف فحشها بعد ثمانية أيام سحناً ففقدت انعم من الدقيق هذا الدقيق المصنوع من الصوف طعام مقدّر لأنه يحتوي على ما لا يقل من سبعة من الأحماض الأمينية وهي قوائم الغذاء الذي استخرجه من البروتينات . وقد صنع هذا الباحث طعاماً لخصه مسحوق الصوف وأطعمه حيوانات التجارب فتمت نمواً عموماً عجيماً وعندها إذا أعد هذا المسحوق الأعداد الواجب غذا فحشراً إذا شأن في تغذية الحيوان وربما الإنسان

الشعر والأظافر والقرون والموافر والفرو والريش والصوف قوامها جميعاً مادة بروتينية تدعى كيراتين ، وهي في حالتها الطبيعية لا تهضم . ولكن الدكتور جوزيف روث Routh أحد علماء جامعة أبوى الأمريكية اذاع من معهد قريب أنه كشف طريقة لتحويل جميع هذه المواد القرنية الى مواد مغذية فقد اتخذ الصوف وقطعه قطعاً صغيرة ووضعها في اسطوانة فيها كرات من الصلب فصارت اذا أدبرت الاسطوانة تدرج كرات الكرات

الانوار (الهرمونات) وحب الشباب

يُدْعَى الآن من معهد قريب وجاء نتيجة للمصادقة . وقد اذاعه الدكتور جيس هاملتون أحد أساتذة كلية الطب بجامعة بايل الأمريكية . فقد بدأ بحثاً ما وليس في نيته سلقاً أن يبحث في « حب الشباب » وسببه . وكانت بدايته في أربعين مريضاً نقص الأنوار (هرمونات) الجنسية . فحقنهم بما تقتضيه الحالة من خلاصة الغدد مدى ثلاثة أسابيع أو أكثر . ولكنه حصل على نتيجة مستترة وغير منتظرة ذلك بأن حب الشباب ظهر في ثلاثة أرباعهم ومع أن هذا الكشف لم يخص إلى ابتكار علاج تام لحالة « حب الشباب » إلا أنه أيد الصلة بين التحول الطارئ على مفرزات الغدد الصم في المراهقة بهذه الحالة

في أثناء دور المراهقة قد تفرز غدد الجلد في الوجه والذق والصدر والكفتين أيضاً من مفرزاتها الدنية فقد بعض قنوات هذه الغدد ويتكون عند مخرجها حب أسود وقد يحدث التهاب في الجلد وبثور وهي ما يعرف بحب الصبا أو حب الشباب أو « الأكنة » Acne . ويقول أحد الأطباء الأمريكيين أن أربعة ملايين من المراهقين والمراهقات يصابون بهذه الحالة أو معرضون للإصابة بها في الولايات المتحدة ولكنها أشيع في المراهقين منها في المراهقات ولما كانت هذه الحالة ترافق المراهقة فقد ذهب الأطباء الى أن التحول في الغدد الصم وأنوارها في هذا الدور من الحياة سبب ذلك ولكن القليل التجريبي لهذا الرأي لم

مكتبة المقتطف

الصين وقنون الاسلام

الفيلسوف الدكتور زكي محمد حسن وحاجته محبته المستقبل في القاهرة في ١٩١٨ سنة من انقضاء الكبير

كانت النواة الأولى لهذا الكتاب القيم بحثاً ألقاه المؤلف في المؤتمر السنوي الحادي عشر للجمعية المصرية للثقافة العلمية ، ولكن المؤلف حفظه الله فلم أراد أن ينفع بهذا البحث قارئون لا سامعون . وإن يصل وجه النفع به إلى من لم تتج له الظروف الاستماع إليه حين التي في المؤتمر ، فأخرجته كتاباً بقي مادته ونحفظ معارفه ، ويرجع إليه في تحقيق علم أو درس مسألة من مسائل الفن الإسلامي ، ويانطلق زبد على البحث الملقى ما تقتضيه مصلحة النشر وما تستلزمه ضرورة الظهور في كتاب مستقل بنفسه قائم بذاته ، وأطال في الكتابة بما لم ينسج له وقت المحاضرة وأضاف إلى الكتاب لوحات نبة مطبوعة على اثنتين وثلاثين صفحة من الورق الجيد الضيف

واستوى البحث بعد ذلك كتاباً قائماً وشاملاً دائماً وضع فيه الدكتور الفاضل مقدمة مختصرة هي أحق أن تسمى تمهيداً للموضوع لا مقدمة للكتاب ، أشار فيها إلى عراقة الفن الصيني وتماصله في التاريخ ووجود وحدة فنية له ترجع إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح وتصل إلى وقتنا الحاضر وذكر فيها بعد ذلك في كلمات عواجل رؤوس الموضوعات التي سيتناولها بحثه ويشتمل عليها درسه ذاكراً في اختصار فضل العرب في رعاية الصنائع وأهل الفنون من أهل الممالك المفتوحة والبلاد المطلوبة بمحمد للإسلام قيام فن جميل مستقل أمتاز بطابع معين

أما موضوعات الكتاب فهي تجمع على اختلافها بين القصة العلمية والتواحيم الأدبية التاريخية والخلق أنها مزيج من العلم والأدب والتاريخ . فإذا أفاد منها المؤرخ طمأن أقال منها الأديب تاريخاً أدبياً .

ومن الطبيعي أن يكون أول موضوعات الكتاب هو العلاقة بين الصين والشرق الأدنى . وكيف كان الاتصال بين هذين الركنين الحقيقيين من العالم المعروف في ذلك الحين . ويتردد المؤلف في تدرج هذه العلاقات حتى يصل إلى اتصال المسلمين بالصين في أوائل القرن السابع الميلادي . وكيف دخل الإسلام هذه البلاد الشاسعة المدى البعيدة الأطراف .

وكيف زادت العلاقة السياسية بين العرب والصين في نهاية حكم الامبراطور الصيني (هوان تسونج) الذي عاش صدراً من القرن الثامن الميلادي

ولا يقتصر المؤلف عند هذا الحد بل يتابع الاسلام في انتشاره هناك ويلاحق الجوانب من المسلمين النازلين تلك البلاد في أزمان متعاقبة . ويؤيد كلامه في ذلك كله بحقيقة من بطون التاريخ ، أو تحقيق المشرق ، أو رحلة لربي جعل الصين وجهته ، والشرق الأقصى طيته . فيشير مثلاً إلى الرحالة العربي سليمان الذي سافر في الهند والصين في منتصف القرن التاسع الميلادي وألف كتاباً في رحلته طبعه المستشرق Langlès ونشره المستشرق Raimond مع ترجمة فرنسية

وبصرح المؤلف بعد ذلك في إنجاز لا يعوزه التحقيق على القرن العاشر الميلادي ، وكيف قلّ الاتصال فيه بين الصين والشرق الأدنى وذلك حين « عدم العدل وفستد الثبات » وانتشرت القرصنة في البحار على يد أقوام من السند يقال لهم الميديم^(١) (ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجازة إلى أرض الهند والصين وجدة والقازم وغيرها كالشواني في بحر الروم)

والحق أنه في هذا القرن بالذات لم يكن الناس يجرءون على ركوب البحر الأحمر من غير «مقاتلة وهطاطين»^(٢) . وكانت جزيرة سقطرى بوجه خاص مركزاً خطراً للصلصة والقرصان وكانت تأوي إليها سفن القرصان ليقطعوا الطريق على المسلمين^(٣) . وكان بحر الهند لا يُركب عند ما يهيج ويظلم ويصير الركوب فيه^(٤) . وبسبب المؤلف في تتبع هذه الصلات إلى عصر الدولة العنوية التي بدأ بعدها الاضمحلال بتسريبه إلى القنون الإسلامية مما جعلها تتجه وجهة جديدة شطر أوروبا لحماكة فتونها ومضاهاة آثارها

وبيلي فصل الصلات بين الشرق الأدنى والصين فصل آخر عنوانه النصف الصينية والتنانون الصينيون في الشرق الإسلامي وفيه اشارات إلى كلام جاء في الطبري وابن خردادبة والقزويني والوزير رشيد الدين والغزولي وابن أبيس والمقرئزي والأبشيحي وغيرهم عن النصف والطلائف التي اشتهرت بها الصين ولقيت قبلاً في الشرق الإسلامي . وبذكر المؤلف قبل ختام هذا الفصل المنع شيئاً عن استيراد المسلمين أنواعاً من الورق المتأثر من بلاد الصين

والحق أن هذا صحيح فقد ذكره عريب بن سعد القرطبي في صلة تاريخ الطبري كما يقول الدكتور وكي . وذكره أيضاً الثعالبي كما قرأتُ أنه يقول أن كواغيد سمرقند عطشت قراطين مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها لأنها أجود وأصفل وأكث موافقة للكتابة ولا تكون

(١) مروج الذهب للمسعودي ١ : (٢) المتنبي من ١٢ (٣) المتنبي من ١٤ ومروج الذهب ٣ من ٣٧ (٤) ابن رسته من ٨٦ — ٨٧

الأبسمرفند والصين^(١). ويحيل الي أن الوارد من الورق من بلاد الصين كان قليلاً وخاصة في القرن الرابع الهجري عندما وجدت مصانع له في دمشق وطبرية^(٢) وطرابلس الشام^(٣) ولا شك أن إعجاب المسلمين بتحف الصين كان عظيماً. والدكتور زكي في فصل ثامننا تقدم يورد من النصوص التاريخية والأدبية ما يؤيد هذا الكلام ويرجع في تحقيق هذا الفصل إلى طائفة من الكتب منها لطائف المعارف للخالجي والبلدان لابن الفقيه ومروج الذهب للمسعودي ونهاية الأرب للزوري وخريدة الجواب لابن الوردي وابن بطوطة وغيرها من المراجع الأثرية وبلي ذلك الفصل فصل عن مظاهر الأثر الصيني في الفنون الإسلامية. وهو بيت القصيد في هذا الكتاب وفيه تركز الفكرة التي من أجلها تليت المحاضرة ونشر الكتاب.

ولكن المؤلف القاضل أوجز الكلام في هذا الفصل إيجازاً لم يكن فيه على حق، وقد كان باب الكلام أمامه مفتوحاً، ومجال الحديث متسعاً، وعندنا من عبدة العالم وأداة الباحث وفيض المطالع ما يبطل له أسباب الكلام، (فالورق) مثلاً وهو أول مظاهر الآثار الصينية لم يظفر من المؤلف بغير سطور قليلة. والتعير عن الحركة والحياة في الرسم، والرسوم التخطيطية بالمواد وهدهود الألوان واحتمال الفراغ وتلون الحبال والبناء وأشكال الآواني والأساليب الصينية في الملابس وآلات القتال والسقوف المحدودة وغير ذلك من أشياء هذه الموضوعات الطريفة كانت تقتضي من المؤلف القاضل دراسة أوسع، واحاطة أجمع وبسطاً وتفصيلاً ونقداً وتحليلاً وتنبهاً وتقصياً. ولم يدع الدكتور زكي حسن في هذا الكتاب النفس الطولى، ولم يحاول أن يفكر فضل الذين أخذ عنهم وأهتدى برأيهم حتى استقام له البحث، فهو يشير في كل حقيقة إلى مصدرها ويردها إلى أصلها، ولا يكتفي بذلك بل يضع في ذيل البحث تبيناً للمراجع العربية والأجنبية ثم لم يذكره في حواشي الكتاب. والحق أنه قرأ لإتمام هذا البحث فضلاً عن زرعاً من المادة العلمية البثرة في بطون الأسفار. وعرض هذه المواد عرضاً علمياً متسلسلاً متناسلاً في طريقة التي عرفت بها مؤلفاته وكتبه الفنية.

أما اللوحات الفنية فقد طبعت على ورق صقيل طبعاً يقرب مادة الكتاب الطيبة إلى الأذهان تقريباً وبصورها تصويراً. وشُرحت كل لوحة منها شرحاً يردها إلى مكانتها الفنية وسكانتها الوضعية في الوجود وتاريخها وبعض خصائصها ويميزاتها الفنية.

والكتاب في بحثه وصوره أثر جليل من آثار الصديق الكريم الدكتور زكي محمد حسن التي يتحف بها المكتبة العربية من حين إلى حين

محمد عبد النبي حسن

(١) عن كتاب المحاضرة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم مندج ٢٠٠ ص ٣٠. وذلك خلا عن لطائف المعارف (٢) كما يقول المتدني (٣) كما يذكر ناصر خسرو في رحته

علم الأمراض أنباطة

الجزء الرابع - أمراض جهاز الهضم - تأليف الدكتور حسني سبيع - رئيس المعهد الطبي العربي
بدمشق - طبع بمطبعة الجامعة السورية - ١٠٤٤ صفحة قطع المنقش بالصور والرسوم والمختصر
هذا الكتاب العلمي المدرسي النفيس هو الحلقة الرابعة في سلسلة وقف الدكتور حسني
سبيع رحمه الله على أنشائها. موضوع السلسلة العام علم الأمراض الباطنة. وقد جعلها خمس حلقات
أصدر منها حتى الآن أربعاً، الأولى في أمراض الجلة العصبية، والثانية في الأمراض الالتهابية
والطبية، والثالثة في أمراض جهاز التنفس، والرابعة في أمراض جهاز الهضم. أما الخامسة فهي
أمراض جهاز الدوران وهي قيد التحضير. وأصدر فيها بين الحلقتين الثالثة والرابعة كتاب فلسفة
الطب. هذه المجلدات الضخمة هي في الواقع دائرة معارف طبية لأبعد العرية عنها توسعاً وتحققاً
واتظافاً في العصر الحديث. وقد كتبت جميعها باللغة العربية المحكمة فجاءت مع غيرها من
المؤلفات الطبية والعلمية والمصنوعات دليلاً قاطعاً وحجة دامغة على اتساع الفحة العربية للعلوم الحديثة،
إذا صحت البنية وعُقيده المزم على تكبد المشاق العظيمة التي يقضيها التأليف العلمي
ولكننا ما زلنا نرث إلى يوم يستطيع فيه المؤلفون العرب في علوم الطب، توحيد الألفاظ
والمصطلحات. وهذا الحال لو عني بجمع فؤاد الأول للغة العربية نهاية عملية بما يؤلفه علماء
دمشق في علوم الطب - وغيرها - وما تحتوي عليه هذه المؤلفات من مصطلحات طبية، بنية
التوفيق والنسيق بينها وبين ما يوضع في القاهرة. فإن هذه النهاية توفر وقتاً ثميناً علاوة أنها
تكون خطوة موفقة نحو الوحدة في الألفاظ والمصطلحات الطبية التي لا بد من تحقيقها في سبيل
المصلحة العربية العامة. وبعد فهذا الكتاب ثمان أو عشان عامان أولها أمراض أجوب الهضم
والثاني أمراض أجوب الأمعاء والثالث في أمراض البنكرياس (رسم المؤلف) - ألا يجوز استعمال
«الحلوة» مقابل البنكرياس أو البنكرياس أو البنكرياس والكبد والطرق الصغرى أو
ويقول الدكتور سبيع في مقدمته «وسيجد القارئ في هذا الجزء بعض الأبحاث الطريفة
التي لم تشر بعد في كتاب مدرسي ما، وقد وجدت من الضروري الاهتمام بها بعدما بدأ من
أعضاء معظم الأطباء عنها، فضلاً عن أسس التدابير الغذائية والدوائية وهي الملوك عليها في معالجة
معظم أمراض احتشاء هذا الجهاز» وهو عند قوله وفي آخر الكتاب سبحانه اثبت فيها الجديد
من الألفاظ والمصطلحات الطبية مما لم يسبق له استعماله في المجلدات السابقة. اخذها من العربية
إلى الفرنسية والثاني من الفرنسية إلى العربية. وهذا الحال لو صحت عزيمة المؤلف - بعد
إصدار الحلقة الخامسة - على جمع جميع هذه المعاجم التي ألحقها بمؤلفاته، في معجم واحد
ووضع المقابل الانكليزي كذلك فيها إتماماً للفائدة. حقا أن القلم لماجز إيفاء الدكتور سبيع
حقه من التواء على منه وما يذله من علمه وتفضله في هذه المؤلفات النفيسة

محمد فريد

ومن الاخلاص والتضحية

تاريخ مصر القوي من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٩ بقلم الأستاذ عبد الرحمن ابراهيمي
٥٦٦ صفحة من القطع الكبير - طبع بمطبع مصطفى الباني اخطي وأولاده بمصر
إذا ذكرت التضحية الخاصة لوجه الله والوطن، والفداية المترفة عن أي جزاء أو ثمن،
برز اسم محمد فريد نوراً يلمع، وحققاً بسطع في تاريخ الأمة المصرية الحديث، ونهضتها القومية
التي ازدهرت. ومبدأً لشمسها المقدسية التي اتفقت وما زالت تضيء الطريق وتهدى السارين
هو البطل الحق، والشهيد الحق، والصريح الذي خرف في الميدان بمد أن حل «لواء»
انوطنية بمد الزعيم الأول، واضطلع بالعبء الجسيم الذي خلفه له بطل جاهد فهدم الجهاد،
وجاهد فأضناه الجهاد، ونسي نفسه وشبابه في حب مصر فتي الموت وهي في أشد الحاجة إليه —
اضطلع باسمه الجسيم بعد هذا البطل العظيم فوجدت مصر فيه الروح الذي حبسته قد همد،
والأمل الذي ظنت أنه قد خمد. فأسمته بمقاديرها فلم ينم عن أمرها، ولم يفكر عن واجبه
نحوها وضحى بكل غالي في سبيل الغاية البعيدة للوطن العزيز، واحتمل مرارة السجن مرة، ومرارة
التي مرأت بمدأ عن أخيه وأولاده وعشيرته، بمد في مرارة هذا التشريد خلاوة الجهاد في
سبيل البشرية، ومد في ظلمة الوحدة لمب الوطنية ونورها مشتملاً من وجدانه فظل يحترق على
مدح الغاية السامية إلى أن أسلم الروح ولم تمكنه عينه من رأي من مرأى وطنه ولا بطلة من ولد أو
عزيز اللهم إلا أنقرأ من خلاصاته الدين أحاطوا بالهالة في الغربة يقسمون من نورها ويتلقون أناسها
لقد ترون هذا البطل الشهيد في سبيل مداه وعقيدته عن نفسه وجاهه، عن كل ما يحرم
الإنسان عليه، ولم يأسف على شيء، ولم تاه الأمل عن وطنه، لقد ضحى بما لم يصح بوزعيم،
فاذا بقي بعد ذلك؟

إذا كان قد بقي في حياته من المرات أشدها، فقد بقي المقدرون لهذه التضحية وهذه
البطولة أيضاً أشد المرات كلها انقضت الأعوام ولم يجدوا من أبناء الوطن تذكراً للواجب نحو
البطل المنسي. والشهد القريب في موته وفي قبره. أن في حياة فريد، وفي سيرة فريد لدروساً عالية
للبطولة، وما أخرج مصر بل ما أخرج كل وطن إلى مثل هذه الحياة ومثل هذه السيرة.
أن حياة الأمم لا تقوم إلا على حياة أبطالها، وسيرتها في التاريخ لا تمس إلا على سير
قائدها وزعمائها، فما أخرجنا إلى بحث الحياة في الوطن الغالي دائماً يمث حياة أبطاله ونسرها
على النشء ليتلقوا عنها الدرس الرائع، وينشربوا منها الوطنية الخالصة من كل غاية مادية
وليس أبطالاً — شهداء الوطن — ملكاً لخير أو وفقاً على حزب، ولكنهم أبناء مصر
وغايتهم غاية كل فرد وكل حزب

ومن أعجب العجيب أن تكون النهضة القومية قرية الهدى من جبلنا وتل في هذا الخيل من يذكرها حق الذكر أو يبرقها حق المعرفة ، وتلك وصمة في جبين الوطنية المصرية
واقف اضطلع بعيب تاريخ النهضة القومية مؤرخ قدير ومطلع بصير ، رجل له من أنران الفكر والبدع عن الهوى ما يسر له سبيله ومهد له طريقه فوضع للحركة القومية سجلاً رائداً ، كان آخر ما أخرج منه تلك الترجمة القيمة للرمز الخالد للوطنية الحقة والتضحية الخالصة . وأدعى بهذا المؤرخ : الأستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعي بك ، وبهذا الرمز الخالد : البطل المنسي محمد فريد ومن أجدر بقاؤه هذه الشخصية الفذة في تاريخ الوطنية المصرية ومعرفة جوانب عظمتها وإظهار مراتب تضحياتها من الأستاذ الرافعي فهو من المحققين للتأدية السامية التي كان الفقيه بجاهد من أجلها ويتفانى في طريقها ، وهو من الذين آثروا مرارة الجهاد على جلاوة الحياء والمنصب ، وورقوا إلى جانب هذا كرامة الوطنية التي تأتي أن تعبد الشمة التي أنارت وليس من حولها من يذكرها ، فكان عمله في تاريخ البطل الشهيد مذكوراً عند الله وعند الوطن ، وعند ما يشبه أهل هذا الوادي إلى الواجب الأول عليهم نحو بطل هذا الوادي الأولين : مصطفى وفريد . والكتاب يشتمل على سبعة عشر فصلاً يكشف كل فصل منها عن ناحية من نواحي هذه العظمة في نفس الفقيه من تاريخ نشأته ومراحل جهاده بين ربوع الوادي وفي مطارح القرية وما تلي في كل ذلك من عناء واضطهاد وما بذل من كفاح وتضحية إلى أن رجعت هذه النفس العطشة إلى ربها راضية مرضية

وان تاريخ محمد فريد — كما ذكر الأستاذ الرافعي بك في مقدمته لهذه الترجمة — هو « ولا غرو تاريخ لسي الجهاد من غير الحركة الوطنية الحديثة ، فلقد شارك مصطفى في بدء سنة ١٨٩٣ وتولى قيادتها بعد وفاته في فبراير ١٩٠٨ إلى أن لحق به بالرفيق الأعلى في نوفمبر سنة ١٩١٩ فكانت هذه السنوات الأخيرة صفحات مجيدة من تاريخنا القومي ولولا ما غطته فيها من تضحيات وآلام ، وما يشبه في قوس الجليل من إخلاص وشجاعة ، وثبات وإيمان ، لما كان لمصر تاريخ وطني في ذلك العهد ، ولا تغلب هذا التاريخ سلسلة من خضوع للاحتلال ، وضعف في الأخلاق . فهذه الحقبة من الزمن التي غداها الفقيه بوطنية وإخلاص ، وبذل فيها ما بذل من ماله وقلمه ولسانه ، ورواها بروحه ومهجة نؤاده ، هي ولا ريب معين لا ينضب من الفضائل القومية ، وأن هذا الكتاب ليتصل من هذه الناحية بالماضي والحاضر . أما صلته بالماضي فلا أنه يحتوي على تاريخ بطل من أبطالنا النظام ، كما يشمل تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ . وأما صلته بالحاضر والمستقبل فلأن التاريخ يفسر بعضه بعضاً ، ولأننا في حاجة إلى أن لسمو بمستوى الوطنية في قلوبنا ، ونحاسب أنفسنا على ما قصرنا في

حق الوطن ، وتسمى عقيدة الايمان بالواجب بين طبقات الشعب ، يستوي في ذلك الكبير والصغير
والغني والفقير ، والرجال والنساء ، والسياسي والمؤلف ، والزارع والصانع ، والتاجر والمالك
والطبيب والمحامي والمهندس . هؤلاء جميعاً لو أدى كل منهم واجبه نحو الوطن لمد بهم ،
ولكانت حالتنا خيراً عما نحن فيه . وان ذكرى الأبطال الخليفة بأن تطهر قوسنا ، وتبعث فيها
روح الايمان بالواجب ، والاخلاص في أدائه . وانها لكتاب منشور تقرأ فيه الاجيال المتعاقبة
آيات الوطنية الصادقة ، وقوة العقيدة ، وتضحية النافع الشخصية في سبيل سعادة الوطن وبجده ،
وتلك امري عُدّة الأمم وذخيرتها الدائمة في حياتها السوية .

ولقد أدى الأستاذ الراقمي بك واجبه نحو الوطن — وما أعظم هذا الواجب — حين
خلد ذكرى هذا الفقيد العظيم وحين سجل الزمن وللاجيال المتعاقبة دروس الوطنية الصادقة
لتقوم هذه الاجيال ان لم يبق ابناء هذا الجيل بأداء ما في أضافهم من واجب نحو هذا الذي
لم يفل يوماً عن ذكر وطنه يوم لبه الداكرون وغفل عن حقه ابناء الوطن الا من ظلت
ضائرم شيقظة وقوسهم متوتبة نحو أداء الواجب الأسمى . ولقد ضم هذا الكتاب الى قبته
التاريخية الجليلة قيمة أدبية بما اشتمل عليه من بعض المراتبي التي قبلت في هذا الفقيد العظيم
فله والوطن ما قدّم مؤرخ مصر الحليل ووطنيتها الصادق . وله حسن الجزاء عن صنيعة
يوم يبرف ابناء الوطن حسن الجزاء ، وليس هذا يمدح حسن كامل الصبر في

الوراثية وتحسين النسل

ألف حسين الايادي — مبدع ٢٠٢ قطع وسط — مطبعة النصر بالقاهرة .

قدم هذا الكتاب المفيد الى القراء حضرة الدكتور عبد المنعم محمد عاكور المدرس بكلية
الزراعة بجامعة فؤاد الأول فقال : —

في خلال الحنين طاماً الماضية عرف العالم كثيراً عن علم الوراثة ، ولكن الانسان وجه
استفادته ، كلها أو أغلبها ، من نظريات هذا العلم إلى تحسين نسل الحيوان ورفع انتاج
محاصيل النباتات ونسب جنسه ، مع أن أهمية هذا العلم الأول هي فيما يختص بتطبيق نظرياته
على الانسان ، واستخدامها كوسيلة لتحسين نسله ، فكم سمعنا عن أسرفقت فيها المصوب
الوراثية التي عجز العلم الحديث عن علاجها ، فضلاً عما تكبدت الدولة من مال تصرفه على الملاهي
والمصحات والسجون وغيرها ، وعلى التقيض كم سمعنا عن أسرفقت أفرادها بالنويع النادر
والعقلية الفذة ولم تتمكن الدولة من الاستفادة بتلك المؤهلات بصفة عامة ، كذلك كم سمعنا عن
حالات كان الأبناء فيها ضحية جهل الآباء وعدم تقديرهم لمسؤولية انتاج النسل التقدير الصحيح

هذه المشكلة الاجتماعية لا يمكن حلها إلا بمقدار تفهم المجتمع مدى تطبيق انقوائه الوراثية على الإنسان ، تلك الناحية العملية التي لم يطرأ عليها أحد — وأغلب ظني أن هذا صحيح — من كتبوا عن وراثية في مصر

واليوم يسرني أن أقوم بتقديم أول كتاب في هذا الموضوع وقد أودعته زميلي الاستاذ حسين الأياري من المعلومات والبيانات ما يثير الطريق أمام من يريد الوقوف على فائدة علم الوراثة وتطبيقه على الإنسان ، ولقد جاء هذا المؤلف في الوقت الذي تبيت فيه مصر الى ضرورة الاهتمام بالناحية الاجتماعية ، فبدأت الفكرة حينما فكر رفعة علي ماهر باشا بإنشاء وزارة خاصة للشؤون الاجتماعية . ولا فوقتا أن نذكر أنه لا يمكن لأية حركة من هذا النوع أن تقوم على أكتاف رجال الحكومة وحدهم ، إذ لا بد أن يساهون الشعب معهم ، بل هو مطالب بالقط الأكبر من هذا المجهود ، ولقد جاء هذا الكتاب — في اعتقادي — خير ما يجهد فيه رجل العلم والقارىء المادى حاجتها من مبادئ الوراثة وتحسين النسل ، فهو رسالة علمية ، كما أنه رسالة شعبية ، جديرة بأن يقرأها كل مهتم بالشؤون الاجتماعية

بحث علمي لفئة شرقية

لم تعود حتى الآن نبوغ الفتيات الشرقيات في العلوم الطبيعية العالية ، مع اتنا أفتنا فوقهن ونوعهن في الأدب والتاريخ والتربية والتأليف فيها . ولكن اهتمام فريقي منهن بطلب هذه العلوم في أوروبا وأمريكا وأنظمة الفتيات المصريات في كلية العلوم وبيوادر نجاحهن في طلبها يهدان الطريق لظهور الفئة الشرقية في ميدان من البحث أفتنا حتى الآن مقتصرأ على الرجال ومن أجدت الأدلة التي وقتنا عليها ، المؤيدة لما تقدم ، بحث علمي أصيل في موضوع عريض في الكيمياء الحيوية . وقد نشر هذا البحث في مجلة جمعية طب البيون الأمريكية في عددها الصادر في فبراير سنة ١٩٤٩

موضوع البحث ^(١) امتصاص جزئيات مادة بروتينية خاصة للطاقة التي وراء البنفسجي وهو بحث دقيق يشمل القياس الطبي المقابل لطاقة من المواد كالأحماض العطرة وعناصر البروتينات وما أشبه وقد قامت به الآلة سلوى لصار بالاشفراك مع زميلة لها تدعى جلاديس أنزلو في أثناء طلب العلم في كلية سمث الأمريكية لبات . وقد انتقلت الآلة سلوى لصار الى جامعة كاليفورنيا للتوسع في فرع العلم الذي خصته بنائها فتسمى لها اسم " نجاح وتوفيق

فهرس الجزء الثالث

من المجلد التاسع والتسعين

الحرب والمرض	٢٠٩
بشار بن برد في الحرب (قصيدة)	٢٠٨
البقرية والجنون : علي أدم	٢٠٩
الدار الاحلامية في مصر : بلعاص عبد الرحمن زكي	٢١٧
كيف يصل الماء الى رؤوس الأشجار الكبار	٢٢٥
المهندس المساح المصري : للمهندس حسن محمد	٢٢٨
مميزات الزجاج : لعوض جندي	٢٣٦
تدوير الأسيرة المصرية : للسيدة أحسان أحمد القوسي	٢٤٠
الأدب والعلم : خفاضة بقلم أستاذ كبير	٢٤٩
مصر وطريق الهند : لجمال الدين الشيال	٢٥٩
الحياة والموت : (قصيدة) لأبي الطيب المتنبي	٢٦٢
اللغة العربية : القبط وما يجب عليهم نحوها : لقريد كامل	٢٦٣
حديثه المقتطف « الشر في المارك والحروب : لمحمد عبد النبي حسن	٢٦٧
سير الزمان « مستقبل الذهب : لقواد محمد شيل — الخطار الذي يهدد المدينة : لقولا الخداد	٢٧٧
باب المراسلة والناظرة « حول عقيدة اشينجلر : علي أدم	٢٩٥
باب الاخبار الطيبة « ملكات مثيرات . لابراهيم موسى . فروع محمد ركنلر في أوروبا .	٢٩٨
كيف تجدد النفس نشاطها : السلطانيلاميد والسل . ليتاين في حالة الاصحاب . الواد القرينة	
غذاء الانوار (المحرمونات) وسب الشباب	
مكتبة المنتطف « الصين وفنون الاسلام : لمحمد عبد النبي حسن . علم الامراض الباطنة : محمد فريدة	٣٠٢
لحسن كامل المصري . الوراثة وتكوين النسل . بحث علمي فتاة شرقية	